أبو شادي في المهجر

بقلم
المرحوم الدكتور
احمد زكي ابو شادي

من مقالاته وأحاديثه

أبو شادي في المهجر

بقلم

المرحوم الدكتور أحمد زكي أبو شادي

مجموعة من مقالاته وأحاديثه

يطلب من

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

تقديم

بقلم : الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

الأستاذ بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر

١

كان شاعر مصر الكبير ، الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، يعيش فى المهجر الأمريكى ، فى نيويورك ، ثم فى واشنطون ، من عمله فى إذاعة « صوت أمريكا » . كان يعمل و يكافح ليعيش ، وليؤدى رسالته التى ضحى بنفسه وصحته وماله فى سبيلها ، دون أن ينسى وطنه مصر ، التى عاش وفيًا لها ، بارًا بها ، يؤيد قضاياها ، ويدافع عن حقها فى الحياة والرفاهية والكرامة الإنسانية ، متمنياً أن تسهم من جديد فى بناء عالم حر سعيد ، ترفرف عليه ألوية الحضارة والطمأنينة والسلام .

ولما توفى شاعرنا الخالد فى ١٢ إبريل سنة ١٩٥٥ فى واشنطون ، حزن عليه العرب فى كل مكان ، وخسرت الإنسانية بوفاته رائداً مستنيراً ، وداعياً جريئاً ، ومفكراً موجهاً ، عمل بإخلاص و إيمان من أجل تقدمها وازدهارها ، ومن أجل الخير للناس جميعاً .

خلف أبو شادى لأسرته الصغيرة — التى كانت تقيم معه فى أمريكا — الأسى والحزن ؛ ولأسرته الكبيرة فى العالم كله —

من تلامذة ومريدين وأصدقاء ، استفادوا من خبرته وتجاربه وقِيَمِه ومثالياته — ترك لها كذلك أمثلة تحتذى ، ومبادئ ومناهج فكرية أصيلة موجهة .

وأبّنه الأدباء والكتاب والمفكرون العرب فى كل مكان ، يُشْرِكهم معهم فى ذلك أعلام الفكر العالمى ورواده فى الشرق والغرب .

وقد ظهر لأبى شادى كتابان قيمان : « دراسات إسلامية » و « دراسات أدبية » .

ثم رأت ابنة الشاعر ، الأديبة الكاتبة الشاعرة الآنسة صفية أحمد زكى أبو شادى أن يطبع هذا الكتاب ، وطلبت منى أن أقدم له ، فقبلت مبتسماً جذلان لأنى سأشهد ميلاد كتاب جديد لأبى شادى ، كان مقدراً له أن يضيع ، وألا ينشر على الناس .

وقد وضع أبو شادى الكتاب ، متناولًا لبحوث ودراسات عديدة ، وكان قد أذاع هذه البحوث والدراسات من «صوت أمريكا» وإن كان هذا السفر لم يشمل جميع الفصول التى دبجها يراع أبى شادى فى الموضوع .

إن هذه الثروة الفكرية المخطوطة ، التى تركها الشاعر لجديرة باهتمامنا وعنايتنا ، وإن نشرها ليعدُّ معاونة عملية فى نشر المبادئ والقيم

الإنسانية التى عاش أبو شادى مؤمناً بها ، داعياً إليهـــا ، منادياً فى الناس ليجتمعوا على المحبة والإخاء ، وعلى دعم مستقبل الإنسانية ؛ وليعملوا جادين فى سبيل بنـــاء عالم أفضل ، وحياة مثلى يسعد بها البشر جميعا .

ودواوين أبى شادى المخطوطة : « إيزيس — الإنسان الجديد — أناشيد الحياة — النيروز الحر » ؛ وكتبه الأخرى التى لم تظفر باهتمام الناشرين بعد ؛ كلها دعوة إلى فلسفة جديدة مثالية ، تؤمن بالعقل ، وتدافع عن كرامة الإنسان ، وتعتز بالقِيَم ، وتحارب الجمود ، وتهتف فى الناس أن : سيروا إلى عصر جديد تشرق فى الآفاق أضواؤه الساطعة ، تبدد الظلام والحيرة والـكآبة ، وتهدى البشر إلى كل ما هو حق وخير وجميل فى الحياة .

والحق أن أبا شادى كان أكثر من شاعر وكاتب وأديب وفنان وناقد وصحفى وعالم ومؤلف وطبيب . . كان إنساناً ، تملأ جوانحه نزعة الإيمان بالإنسانية ، وحب الخير لها ، والـكفاح من أجلها ؛ ويعطف على الناس كافة ، ويأسى لآلام البشر جميعا ، ويرحم الأشقياء منهم ، حتى ولو كانوا أعداءه وخصومه .

كان ذا قلب كبير ، ومشاعر مرهفة ، وذهن حاد ، وفـكر متوثب .

كان مفكراً عبقرياً ، أسهم فى بناء النهضة الأدبية المعاصرة فى مصر والشرق العربى ، بكل جهوده ، منذ أن أنشأ مجلة أبولو وجماعة أبولو عام ١٩٣٢ ، وعُدَّ أحدَ روّاد هذه الحركة ودعاتها .

٢

وحياة أبى شادى تَتَّسِم بالكفاح الطويل الشاق ، من أجل التحرر الثقافى والعقلى ، ومن أجل حرية الفكر والنقد والأدب والفن ؛ وقد عاش يدعو إلى إخاء الأدب وديمقراطيته ومثاليته ، يدعو فى الأدب إلى الإخلاص والوحدة وإلى التجديد فى كل ألوان الأدب وفنونه . ويدعو فى الشعر إلى الأصالة والفطرة والموهبة ، وإلى الوحدة التعبيرية ، والتناول الفنى السليم للفكرة والمعانى والموضوع والتجربة ، وإلى الطلاقة الفنية ونزعة التحرر ، هذه النزعة التى قوامها الصدق والبساطة والسماحة وجرأة التعبير ؛ وإلى السمو المستمدّ من فكرة التقدم والإنسانية ، محارباً القيود والصنعة والتكلف ؛ وقد عمل طول حياته على إنصاف الشعراء ، وخاصة المغمورين منهم . وكثيراً ما نوّه بالأدب المصرى الحديث فى شتى البيئات الأدبية العالمية عامة ، وبيئات الاستشراق على وجه الخصوص .

ويتنوع شعر أبى شادى إلى ألوان عديدة ، من الغزلى والوجدانى

ووصف الطبيعة والشعر الصوفى أو الفلسفى ، والشعر الوطنى والتقدمى ؛ وكل هذه الألوان طاقة شعرية خصبة ، واستجابة ذاتية للنزعة الحديثة فى التفكير . وهو أول من نظم الشعر التمثيلى فى اللغة العربية ؛ وكان يحبذ الشعر الحر والمرسل ، وينظم منهما بعض قصائده .

ويتراوح شعره بين النزعة الرومانسية فى يفوعته وشبابه ، وتظهر فى قصائده الغزلية والوجدانية والطبيعية والنفسية ؛ وبين النزعة الصوفية والاجتماعية والإنسانية فى كهولته ؛ والنزعة الواقعية التى تظهر فى شعره منذ أصدر ديوانه « عودة الراعى » عام ١٩٤٢ حتى وفاته ؛ وإن كان الاتجاه السائد فى شعره هو الاتجاه الرومانسى ، ومع ذلك فله شعر رمزى بديع .

ويعد رائداً للمدرسة الرومانسية فى الشعر العربى المعاصر ، ومن الذين بذروا بذور الواقعية الحديثة فى الأدب ؛ وهذه المدرسة هى التى حملت لواء الشعر بعد شوقى وحافظ ، متابعة خطا المجددين ، من أمثال مطران وشكرى ومحرم ، ومتأسّية فى كفاحها الأدبى بتحليل مطران الشاعر العربى الابتداعى الأول ، وكانت تدعو إلى التجديد فى أوسع نطاق ، وإلى الأصالة فى أبعد حدودها ، وإلى تمثيل روح الفن والموهبة فى إنتاج الشاعر .

ودواوين أبى شــادى المطبوعة الثلاثة والعشرون ، وقصصه ومسرحياته العشر ، درة متألقة فى جبين الشعر المعاصر ؛ ففيها روائع من القصيد لم تجد بها قريحة شاعر . وتمتاز بجدة المعانى وابتكارها وطرافتها ، وتعدد الأخيلة ، مع العناية بالجو الفنى للألفاظ ، وبتركيز الأسلوب ، وكثرة الصور ، والحرص على الوحدة الفنية ، والتجربة الشعورية ، والانسجام الموسيقى .

٣

وكان شاعرنا يؤمن بالإنسانية فى الثقافة ، ومن ثم درس روائع الأدب العربى قديمه وحديثه ، وتناول أصول الأدب الإغريقى ، ومذاهب البلاغة عند الأوربيين ، واطلع على آثار العلوم والفكر فى كل لغة وثقافة .

ومع سيادة النزعة الوطنية والقومية فى تفكير أبى شادى وأدبه ، تبدو فيهما كذلك روح النزعة العلمية ، وآثار من النزعة الإنسانية التى لوّنت حياته وأدبه وشعره بألوان مشرقة بالحب والإخاء الانسانى .

لقد كان صورة زاهية للفكر المصرى المتحرر ، وكان يقف فى الصف الأول مع المدافعين عن حرية الفكر ، يقول : « إن الأمم

الراقية لن تحترمنا لوأد الفكر كيفما كان ؛ وإنما تحترمنا لاحترامه » ؛ ويقول : « إن الأديب العربي فى حاجة ماسة إلى تشرب الحرية ، وهذه الحرية هى التى توحى بالتسامح والترحيب بجميع ألوان الإنتاج الأدبى وغير الأدبى ، تاركة للزمن غربلتها » .

٤

هذا هو أبو شادى الذى توفى عن ثلاثة وستين عاما (١٨٩٢ — ١٩٥٥ م) قضاها فى إعزاز رسالة الحضارة ودفع عجلة التقدم ، وقد ولد ونشأ فى القاهرة ، وتثقف فى مدارسها ، ودخل مدرسة طب قصر العينى ليتعلم الطب فيها ، وسرعان ما تركها وسافر إلى انجلترا لإكمال دراسته ؛ ومن عجب أن يهاجر من مصر إلى انجلترا فى الرابع عشر من أبريل ١٩١٢ ، حيث قضى فى لندن عشر سنوات عاد بعدها إلى وطنه ، يخدمه ويضحى فى سبيله بكل شىء ؛ وأن يهاجر إلى أمريكا فى الرابع عشر من أبريل عام ١٩٤٦ ، حيث عاش هناك تسعة أعوام ، بعيدا عن وطنه وأهله ؛ وفى الرابع عشر من أبريل عام ١٩٥٥ أذيع نعى الشاعر فى مصر ، وطويت صفحة مشرقة بالكفاح والمجد والعبقرية ، وانتهت حياة رجل كانت حياته فخراً لمصر والعرب والشرق فى كل مكان .

٥

تذكرت كل ذلك وأنا أقدم هذا الكتاب الذى دعتنى إلى كتابة مقدمته ابنة شاعرنا الكبير الآنسة صفية أبو شادى ؛ وليست كتب الشاعر فى حاجة إلى تقديم ، فهى تقدم نفسها إلى القراء فى ثقة واطمئنان واعتزاز بالطاقة الفكرية التى تمثلها . ولكنى أقول : إن دراسات أبى شادى تستمد عناصرها الأصيلة من خبرته الطويلة ، وثقافاته الواسعة ، وفكره العميق ، وذهنه الحاد ، وعقله العميق الإدراك لدقائق الأشياء ، وأصولها وجوهرها ، ولأسبابها ومسبباتها .

لقد كان لى الحظ فى دراسة أبى شادى المفكر الأديب الشاعر فى كتابى « رائد الشعر الحديث » ؛ وفى الإسهام فى نشر بعض آثاره المخطوطة ؛ وكلما عشت فى جو أبى شادى الفكرى والأدبى ، شعرت بسعادة نفسية لا تماثلها سعادة ؛ هذا الإنسان العبقرى الذى كان أعظم سفير ، بعثته مصر ممثلاً لها فى العالم الجديد ، واحترمه هناك العلماء والأدباء والمفكرون والاستشراقيون ، واحترموا فى شخصه مصر البانية ، الساعية إلى التقدم والتجديد .

إننى أحيى ذكرى الشاعر الكبير ، متمنيا لآثاره النشر والذيوع والفهم والتقدير ، حتى يزداد الناس تقديراً له . وإكباراً لحيويته وذهنيته وعميق إدراكه للحياة ؟


فى التاريخ

عيد الاستقلال الأمريكي

(٤ يوليو سنة ١٩٥١)

فى الرابعِ من يولية سنةَ سِتٍّ وسبعينَ وسَبعمائةٍ بعدَ الألفِ للميلادِ غَنِمَت البشريةُ غُنماً أدبياً عظيماً باعلان الكونجرس الأمريكى حُقوقَ الشُعوب إعلاناً جهيراً لا مواربةَ فيه ، إذْ نَصَّت الوثيقةُ التى اعتمدَها على مبادىء انسانيةٍ وفلسفية عاليةٍ تَشَبَّثَتْ بها الأمَّةُ الأمريكيةُ منذ بَدْءِ تاريخها القومِى حتى اليوم وَبَثَّتْهَا فى أرجاء العالم ، فعزَّزتْ وما تزال تعززُ تَقَدُّمَ البشريةِ أدبياً ومادياً ، وأصبحتْ مَناراً رفيعاً للديمقراطيةِ الحَقّةِ فى العالم بأسره .

وقد جاء فى هذه الوثيقةِ التاريخيّةِ الخالدَةِ :

« إننا نَعتقدُ هـذه الحقائقَ بديهيّةً : إنَّ الأفرادَ بأجمعِهم خُلِقُوا متساوين ، وقد مَنَحهم الخالقُ حُقوقاً معيَّنَةً غيرَ قابلةٍ الانتزاعَ . ومِنْ هذه الحقوقِ الحياةُ والحريةُ والسعيُ نحو السعادةِ . ولصيانةِ هذه الحقوقِ تُنْشَأُ الحكوماتُ بين النّاسِ . فتَستمدُّ هذه الحكوماتُ سُلْطَتَها العادلةَ من رِضَى المحكومين . وإنَّ أيةَ حكومةٍ — مهما كان شَكلُها — إذا أصبحتْ هدَّامةً لهذه الغاياتِ، فمن حقِّ الشعبِ أن يُغيِّرها

أو يُلغيها ويُنشئ مكانَها حكومةً جديدةً يضعُ أساسَها على ما يَبْدُوله من مَبادئَ، وينظِّمُ سُلطتَها على ما يتراءى له من أشكالٍ تضمن له السّلامةَ والسّعادةَ » .

وقد أوحتْ مَواكبُ البهجةِ فى عيد الاستقلالِ الأمريكىّ اليومَ بالقصيدةِ الآتيةِ لشاعرٍ عربىٍ فى نيويورك :

أَمواكبَ الذِّكرى تَأَنّى واهْتِفِى ... كالرَّعدِ يَهْتِفُ لِلسَّماء مِرارَا

تَتجاوبُ الأجيالُ حولَكِ مِثلما ... تَتجاوَبُ السَّبْعُ الطِّباقُ جِهارَا

مَرْفُوعَةَ الأَعناقِ ليس لِزَهْوِهَا ... مَعْنَى الغُرورِ، بل السُّمُوُّ، شِعارا

سِيرِى مَلاَحِمَ لِلفَخَارِ، وَأَنْشِدِى ... للخالدينَ الُحبَّ والأشْعَارَا

سِيرِى مَآثِرَ لِلتَّحَرُّرِ والعُلَى ... فاليومَ يُلهِمُ حَظُّكِ الأحرارَا

ويَصُوغُ للأَقدارِ سِيرَتَها غداً ... فَتُكَيِّفُ الأحلامَ والأَقدارَا

يُصْغِى الزَّمانُ إلى نشيدكِ، واعياً ... ما كان فى ماضِى الزَّمَانِ مُعارَا

لا حُكْمَ بعدَ اليوم إلاَّ ما قضتْ ... شِيَمُ الشُّعُوبِ به، وإلاَّ انهارَا

سَتُرَدِّدُ الأقطارُ صَوْتَكِ، قاهِراً ... خَوَرَ النُّفوسِ، وسَاَئِحاً جبَّارَا

سِيَرُ البُطولَةِ كالمعارفِ للنُّهَى ... تَغْذُو الشُّعورَ، وتَخْلُقُ الأفكارَا

رَوَّى الدَّمُ الغالى مَآثِرَها، كما ... شَعَّتْ بِأَبْهَى التَّضحياتِ مَنارَا

وجَلالُهَا حَيٌّ ، وإنْ هِيَ وُورِيَتْ حِقَباً مِن التَّاريخِ لا تتَوارَى !

* * *

عِيدٌ يُقَدِّسُهُ ذَوُوهُ تفانيًا وَيَظَلُّ فيهم حاكمًا قهّارَا

هو لِلبَرِيَّةِ كُلِّها : إيمانُها أو ثَارُها أيَّانَ تطلُبُ ثارَا

صانتْ مَبَادِئُهُ السَّلامَ وإنْ تكنْ حَمَلَتْ إباءَ الصُّلْبِ يُقْدَحُ نارَا

يا ويلَ مَنْ عَمِلوا على إرهاقِهِ مِثْلُ الحليمِ على التَّعَسُّفِ ثارَا

اتَّخَذَ النُّجُومَ شِعارَهُ ، ولعلَّها أوْلَى به فِي فَهْمِهَا الأسْرَارَا

فَلْتَنْصِتْ الدُّنيا لما هو قائلٌ فتُضِفْ إلى أعمارِها أعمارَا !

ميلاد الحرية

نحن الآن ممتطون عَجَلَةَ الزَّمن ، وقد عاد بنا القهقرى إلى الرابع من يوليه سنةَ ألفٍ وسبعمائةٍ وستٍ وسبعينَ عند الساعة الثانية بعد الظهر بمدينة فيلادلفيا أمامَ بناء البلديَّة ، و إذا بالأجراسِ تُقْرَعُ ، بينما اجتمعَ خلقٌ كثيرٌ ، وأمامنا زمرةٌ من المثقَّفين يتحدثون :

***

جورج : لقد تمَّ الأمر !

سميث : ها هو صديقُنا آدمز خارجٌ من الاجتماع . . . لقد لمحَنا . . . ها هو قادمٌ نحونا !

هربرت : إنّه أجدرُ المؤتمرين بالتهنئة !

آدمز : تهنئاتى إليكم أيها الأصدقاء .

جورج : بل التهنئة لك !

هربرت : أنت الأحقُّ بها ، فنحن نَعرفُ جهدَكَ فيما تمَّ !

آدمز : كلاَّ ! كلاَّ ! ما أنا إلاَّ أحدكم ، وعلى أخصّ اعتبار لستُ إلاَّ أحدَ خمسةٍ وضعوا وثيقةَ إعلان الاستقلال التى دَبَّجتْ صيغتَها الأساسيةَ يراعة صديقنا جفرسن .

صيغتَها الأساسيةَ يراعةُ صديقنا جفرسن .

جميث : الحقُّ معك ياصاحبي . اليومُ عيدٌ لنا جميعاً . هو عيد لجيلنا وللأجيال المقبلة . فالفرحةُ عامّةٌ والتهنئةُ عامّةٌ .

آدمز : إنَّ اليومَ مِيلادُ الحرية لبلادنا ، بل ميلاد حرية جديدة للعالَمِ بأسره ، حيثما فُهِمَتْ وقُدِّرَتْ وكوفحَ من أجلها وحُرِصَ عليها . إننَّا لم نكن إلّا تَرْجُمَانَ الشعب فى النهاية . صحيحٌ أنَّ طوماس بين فى نشرته العظيمة *(Common Sense)* « حُسْنِ التَّقدير » التى طُبِعتْ مِنها مائةُ ألفِ نسخةٍ كان الرَّائد المُفصحَ فى الدَّعوة إلى التحرُّر — وفى تلقين الشعب أسمى معانى الحرية التى لا توجد كرامةٌ حقّةٌ بدونها ، ولكنَّ الايمانَ الذى غرسَه فى الشعب شَبَّ وترعرعَ وانتشرَ بسرعة مدهشة ، فإذا بالولايات الثلاثَ عشرةَ تتكوّن رأيا عامًّا قوياً حازماً يقضى على المتشككين والمتردّدين ، ويملى إرادتَه على الكونجرس ، وها هى النتيجةُ ماثلة أمامكم ، وها هى الأجراسُ تدُقُّ لكم البشرى .

(قرع أجراس الحرية)

آدمز مواصلا حديثه: ثِقوا بأنه لا طوماس پين ولا طوماس جفرسن ولا بنيامين فرانكلين ولا أنا (جون آدمز) ولا أيٌّ من زملائنا بالقادر على خَلْق الحياةِ الجديدة ، لو لم يكن الشعبُ مستعداً لها ، بحيث يمقت الاستعمار أشدَّ المَقتِ و يعتبر الاستِقلالَ مرادفَ الحياة .

هربرت : هذا صحيح يا جون ، ولكنكم أنتم الذين خلقتم هذا الوَعْىَ الجديدَ فى الشعْبِ .

سميث وجورج : صحيحٌ ، صحيح !

آدمز : الحديثُ عن الوَعْى ما هو إلّا شقشقةُ لسانٍ ، ما لم نرَ هذا الوعىَ إيماناً راسخاً فعّالاً ، وتضامناً صحيحاً .

جورج : أتذكرُ يا سميث مِصداقاً لما يقولُه جون الآن — ما كنتُ قرأتُه لكَ من الحِكَمِ الشرقيةِ المقدَّسَةِ عن أنَّ اللهَ لا يُغيّر ما بقومٍ حتى يُغيّروا ما بأنفسهم ، وأنَّ التضامن بين المؤمنين بعقيدة — كيفما كانتْ — يجبُ أن يتخذَ صورة البُنيانِ المرصوص يَشُدُّ بعضُه بعضاً ؟

سميث : أذكر هذا يا جورج ، وأغلبُ ظنى أنّ هذه الحكم الصادقة

مقتبَسةٌ من القرآن الشريف الذى يدين به ملايينُ عديدونَ من البَشَرِ .

هربرت : صحيحٌ ، صحيحٌ ! تَصوَّروا لو أنّ هذه الملايين اعتنقتْ هذه المبادئ فعلاً ، وعضتْ عليها بالنواجذ ، وحَرِصَتْ على تطبيقها ، أيةُ قوةٍ هائلةٍ متحررةٍ يمكن أن تتألَّفَ منها ، وأيةُ حليفةٍ طبيعيةٍ لنا يمكن أن تَنْجُمَ عنها !

آدمز : صَدَقْتَ يا هربرت ! إنَّ الحرصَ على التطبيق هو أهمُّ ما يَصون الحَقَّ والحريةَ . أمَّا الأقوالُ والقراراتُ وحدَها فلا تكفى . لا بدَّ من التَّفانى فى سبيل الحقّ . لا بُدَّ من التضحية . لا بدّ من بُطولةِ الإيمان التى لا تَقهرها المخاطرُ والويلاتُ والأهوالُ ، بل قد تُرحّب بها كثمنٍ لا بدَّ من دَفعهِ صِيانةً للتراثِ المقدَّسِ ولحقوق الأولادِ والأحفاد . لا بُدَّ من الإعراض عن الروح النفعية ، ومن الإقبال على القيم المثالية الخالدة التى تَخلُقُ وحدَها من الحرمان نعمةً ، ومن الجحيم جَنَّةً ، ومن الضعفِ قُوةً غلابةً تكتسحُ المتجبّرين الحاكمين بأمرهم والعتاةَ المتسلّطينَ فى غفلةِ الزمن !

(تصفيق)

هربرت : دَعْنا نصفّق لك ياجون . ياليتنى بل ليتنا جميعاً اسطعنا حضور اجتماعكم حتى كنا نستمع إلى خطاباتكم الفصيحة الساحرة !

سيشوجورج: نعم ، نعم !

آدمز : إنّ الخطبةَ الفصيحة الرائعةَ لم تُلقَ بعد . وستكون خطبةً مؤلمةً طويلةً مريرةً ، ولكن المؤمنين جميعاً سيتعلقون بها . إنها لخطبةٌ لا بدّ من إلقائها . إنها معاركُ الكفاح لأجل تحقيق الاستقلال الأكيد بالفعل . أما التمهيدُ لهذه الخطبة فهو وثيقةُ الاستقلال التى أقررناها منذ برهةٍ وأعلنّاها . وإنّها بمبادئها التى قد تفوقُ مبادئَ الثورةِ الفرنسية لَبَعْثٌ جديدٌ للحرية فى جميع أرجاء العالم المنكوب بالمستغلّينَ والظالمينَ والمستهترينَ المستعمرين الوارثين بَيْعَ الشعوب وشراءها كأنهامن سقط المتاع ! اسمعوا أيها الأصدقاء بعضَ ما تضمنته هذه الوثيقةُ من المبادئ النّورانية الشريفة التى لابدّ لحياة الشعب وعزته من أن يسطّرَها بدمهِ : «إنّنا نعتقد هذه الحقائقَ بديهيةٌ . . . إنّ الأفراد بأجمعهم قد خُلِقُوا متساوينَ ، وقد منحَهم خالقُهم حُقُوقاً معيّنَةً غيرَ قابلةٍ

الانتزاع . ومن هذه الحُقوقِ الحياةُ والحريةُ والسّعْيُ نحو السعادة . ولصيانةِ هذه الحقوق تُنْشَأُ الحكوماتُ بين النّاسِ ، فتَستمدُّ هذه الحكوماتُ سُلْطَتِهَا العادلةَ من رِضَى المحكومين . وإنَّ أيةَ حكومةٍ — مهما كانَ شَكْلُها — إذا أصبحتْ هَدّامَةً لهذه الغاياتِ فَحَقُّ الشعبِ أن يُغيّرَها أو يُلغِيَها ويُنشئَ مكانَها حكومةً جديدةً يَضعُ أساسها على ما يَبدُو له من مَبادئَ ويُنظّمُ سلطتَها على ما يَتراءى له من أشكال تَضْمَنُ له السّلامةَ والسعادة » .

خطاب جتسبرج

THE GETTYSBURG ADDRESS

« متى استعبدتُمْ النَّاسَ وقد وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهم أحراراً ؟ ! » — كلمةٌ مُدَوِّيَةٌ قالها عمرُ بنُ الخطابِ منذُ قُرُونٍ ، تذكيراً وتنبيهاً وتعنيفاً، وما زالتْ ناموساً و إلهاماً للمصلحين المسلمين ، حتى قال فيه شاعر النيل محمدٌ حافظٌ إبراهيمُ :

دَرَى عميدُ بنىالشُّورَى بِمَوْضِعِهَا — فعاشَ ما عاشَ يَبنيها ويُعْلِيها
وما استبدَّ برأيٍ فى حُكومتهِ — إنَّ الحكومةَ تُغْرِى مستبدِّيها
رَأْىُ الجمَاعةِ لا تَشْقَى البلادُ به — رَغْمَ الخلافِ، ورأىُ الفَرْدِ يشقِيها

وفى القرنِ الماضى ألقَى أبراهام لنكلن كلماتٍ معدودةً اشتهرتْ باسم خطابِ جِتِسْبِرج فدوَّتْ كذلك فى أمريكا ثم فى العالم الْحُرِّ جيلاً بعد جيلٍ ، ومازالت ناموسًا و إلهامًا للمصلحين الرائدين فى العالَمِ بأسرهِ . وهى على إيجازِها وانعدامِ التَّفَرُّغِ لإعدادِها تُعْتَبَرُ من روائع الأدب الأمريكىّ ، ولا يُقاربُها فى الرَّوعةِ والفصاحةِ والخلود غيرُ ما كتبه نثرًا

الشاعرُ الأمريكىُّ الجهيرُ كارل سافدبرج[1] عن جِنِسْبِرج ، وَرَوْعَتُها وخُلودُها قائمان على ما شعَّتْ به ألفاظُها من إيمانٍ قويٍّ بالحقائقِ الأزليَّة التى تَدورُ حولَ حُقوقِ الـكائِنِ المفـكِّرِ — الانسانِ الذى لولا حُريَّتُه وتفـكيرُه لما كانت الأرضُ أهلاً للسُّـكْنَى فيها — وحول شَرَفِ الاستشهادِ فى سبيلها ، وأثر هذا الاستشهاد فى إحياء المثاليات العليا وإسعاد البشرية . فـكانت وما زالت الوحىَ المقدَّسَ الذى تؤمنُ به أمريكا ويمثل معنوياتها أصدق تمثيلٍ . وكان وما يزال أبراهام لنـكلن من أنبياء الفـكر الصافى الذين قلما يجود الدهر بهم .

* * *

حولَ منتصَفِ القرن التاسع عشرَ كانت الولاياتُ المتحدة تَتَحَوَّلُ بسرعةٍ إلى أُمَّةٍ صناعيةٍ . واتَّسَعَتْ تَسهيلاتُ الانتاج فى الشَّمالِ بسبب كثرة المهاجرين الأوروبيين الميسورين للعمل فى المصانع . أمَّا الجنوبُ فـكان لا يزال زراعيًّا ومعتمدًا على سُخرة العبيد . ولقد قام النِّزاعُ بين الشمالِ والجنوب حولَ مشكلةِ النِّخاسـة . ولمَّا اتخذتِ الحـكومةُ الأمريكيةُ إجراءاتها لإلغاء النِّخاسَـةِ ثارتْ عليها الولايات الجنوبية وانفصَلَتْ عن الاتحاد .

---

(١) *The Lincoln Reader—Edited by Paul M. Anglan*
(Rutgers University Press)

وفى سنة ألفٍ وثمانمائةٍ وإحدى وستينَ هاجمتْ جيوشُ الجنوبِ قُوّاتِ الاتحادِ ، فاشتعلتِ الحربُ الأهليةُ وتكبَّدَ جيشُ الاتحاد فى الشّمال خسائرَ فادحةً فى الرّجال والمعدّاتِ . ولكن حولَ سنة ألفٍ وثمانمائةٍ واثنتيْن وستينَ تمكّنتِ الحكومة الفِدراليةُ (الاتحادية) من اتخاذ خُطّةِ الهجوم . وحولَ سنة ألفٍ وثمانمائةٍ وثلاثٍ وستينَ انتصرتْ قوّاتُ الحكومةِ الفدراليّةِ (ورئيسها الأعلى لنكلن) فى معركةٍ قرّرتْ مصيرَ الحرْبِ . تلك كانت معركةَ جِتِسْبرج الّتى دفعَ الفريقُ المنتصرُ ثمناً فادحاً فيها للنصر ، كما دفعَ الفريقُ المنهزمُ ، بحيث روّعتِ الخسائرُ الفادِحَةُ الأمّةَ بأسرها . وترك الجنوبيّون الجَرحَى فى الميْدانِ ، قانعينَ بالفِرار ، يُلاحِقُهم الباقى من جيش الاتحاد . وإزاء الخسارةِ الهائلةِ كان جميعُ القادرين على حَمْلِ السلاح يحاربون ، ولم يتيسّر أحدٌ لنقلِ الجَرْحَى ودَفْنِ الموتى .

وأثارَ الجمهورَ العِلْمُ بأنَّ مَنِ استشهدوا فى جِتِسبرج دفاعاً عن الاتحاد ، وكذلك خُصومُهم القتلى ، ما يزالون دُونَ دَفْنٍ فى مَيدانِ القتالِ بعد أسابيعَ من المعركة .

كان التأثُّرُ العامُّ الباعثَ الأكبرَ لإنشاء أولِ مقبرةٍ قوميّةٍ —

مقبرةِ جِتِسْبِرْج فى بنسلفانيا ووُزِّعَتِ الدعواتُ لحفلة تدشينِ المقبرةِ . وسُئِلَ إدوارد إڤريت *Edward Everett* (الذى كان معدوداً أبرز خطيبٍ فى وقته) أن يُلْقِيَ الخِطابَ الرئيسىَّ . ثم خطرَ للَّجنةِ أخيراً — بعدَ مُرور عدّةِ أسابيع — أن تَدْعُوَ الرئيس لنكلن أيضاً ليقول بِضْعَ كلماتٍ فى الحفلة بوصْفِهِ رئيس الدولة . فأثارتْ الدعوةُ مناقشةً حادةً بين الجمهور . وكان أبراهامُ لنكلن موضوعَ خلافاتٍ ونَقَدَاتٍ شديدةٍ وذَمٍّ وسُخريةٍ . وصَوّرَهُ خُصومُه كاريكاتوريًا كخطَّابٍ أُمّيّ ، أو ككاتبٍ خَشِنِ الطّباع فى مَحَلٍّ بِقالةٍ ، وعَدُّوهُ أهْوَنَ مِنْ أن يكون مُناظِراً لخطيبٍ من طراز إڤْرِيت فى ظَرْفِهِ الاجتماعىِّ وثقافة مَنْطِقِه .

تعَرّضَ الرئيسُ لِلَّوْمِ على كلّ هزيمةٍ لَحِقَتْ جيشَ الاتّحادِ خلالَ سنواتِ الحَرْبِ الأولى ، ولم يتقدَّم بمديحِهِ إلّا القليلون بعدَ معركةِ جِتِسْبِرْج . كان لنكلن وأعوانُه معرّضين للهجوم الحادّ فى المؤتمراتِ الحكوميّةِ وفى اجتماعات مجلس الوزراء بواسطةِ ممثّلى الفئاتِ الكثيرةِ المنشقّةِ . كان بعضهم متحمّساً للانتقامِ السّريعِ من الجنوبِ المخرّبِ ، وكان سواهم مهتمًّا بانتقالِ البلادِ اقتصادياً من حالةِ الحربِ إلى حالةِ السِّلْمِ . وأمّا لنكلن فكان يحثّ حكومةَ الاتّحادِ على نَبْذِ جميع الخلافاتِ ،

إلى أن يتحقّقَ نهائياً النّصْرُ ، وإلى أن يَستقرَّ السِّلْمُ الحقُّ العادلُ في البلاد .

***

رَكِبَ أبراهامُ لنكلن القطارَ قاصداً مَيْدَانَ جِتِسْبرج في الثامن عَشَرَ من نوفمبر سنة ألفٍ وثمانمائة وثلاث وستين . وكانت عرباتُ القطار غاصَّةً بالجنودِ الجَرْحَى واللاجئين . فرأى الرئيسُ من نافذة القطار الخرابَ الفظيعَ الذى خلَّفَتْهُ الجيوشُ الزاحفةُ في أثَرِها ، فلم يكن ثَمَّةَ غيرُ الحطام الآدمىّ والبُؤْسِ المُطْلَقِ . . . وفي محطّةِ جِتِسْبِرْج احتشدَ الأهالى لتحيَّة الرئيس . وكان كثيرون منهم قد هَرَبُوا من بُيُوتِهِم المدمَّرةِ ، وكانوا على حِدادٍ لِفَقْدِ أحبَّائهم في الحرب ، وأرادوا أن يطمئنُّوا إلى أنَّ تضحياتهم لم تكن سُدًى . وفي الليلة السابقة لحفلة تدشينِ المقبرةِ جلسَ أبراهامُ لِنكلن بمفرده ليضعَ خُطبتَه .

كان لنكلن من صميم الشعب ، وقد وُلِدَ في كوخٍ خشبىٍّ عند الحدُود ، وتعلَّمَ في سِنٍّ مبكّرةٍ أنَّ على الناس أن يتعاونوا لتحقيقِ خيرِهم المشترَكِ . ولمّا كان والدُ لنكلن فقيراً فقد كان على الصَّبىِّ أن يَكْسِبَ قُوتَه . فعَمِلَ أولًا فلاّحاً بمزرعةٍ ، ثمَّ فالقاً للخشب ، ثم كاتباً بمحلٍّ بقالةٍ . وعلَّمَ نفسَه بنفسِه القراءة

والـكتابة ، وأخيراً وُفِّقَ لأن يكون محامياً . ورغبةً منه فى تحسين أحوال النـاسِ الذين نشأ منهم ، دخل أبراهامُ لنـكلن مَيْدَانَ السياسةِ ، وفى النهاية أصبح الرئيسَ السادسَ عشرَ للولايات المتحدة .

وفى التاسع عشر من نوفمبر سنة ألفٍ وثمانمائةٍ وثلاثٍ وستين اجتمع ثلاثون ألفاً فى فِناء المقبرةِ ليشتركوا فى حفلة التدشين . وقد تـكلَّمَ الخطيبُ الشهيرُ إدوارد إِفِرت ساعتيْن ، ولـكنَّ التـاريخَ نَسِيَ منذ زمن ما كان يقول .

***

أخيراً وقف أبراهام لنـكلن ليلقىَ الخطابَ الذى صار فيما بعد وصيّتَه لمحبى الحريّةِ أينما كانوا ، فقال :

« منذ سبعةٍ وثمانين عاماً خَلَقَ آباؤنا فى هذه القارّةِ أُمّةً جديدةً أُبدِعَتْ بروح الحرّية وكُرِّست لفـكرةِ أنّ جميع الناسِ خُلِقوا متساوين . والآن نحن منهمكون فى حربٍ أهليَّةٍ عظيمةٍ تختبرُ قُدرةَ هـذه الأمّةِ ، بل أيّةِ أمّةٍ كُوِّنَتْ وكُرِّسَتْ هكذا ، على طول الاحتمال .

لقد اجتمعنا فى مَيْدانٍ عظيمٍ لتلك الحرب . اجتمعنا لتدشينِ

شطرٍ منه كمثوًى أخيرٍ لأولئك الذين وَهَبُوا حياتَهم كيما تعيشَ هذه الأمّةُ . فمن اللّياقة والسَّدَادِ معاً أن نفعل هذا حتماً . ولكنّنا بمعنًى أكبر لا نستطيعُ أن ندشِّنَ ، ولا يمكننا أن نُكرّسَ ، ولا يَسَعُنا أن نُقدِّسَ هذه الأرض . إنّ الشُّجعانَ ، أحياء وأمواتاً ، الذين جاهدوا هُنا قد كرّسوها إلى مَدًى أبعدَ كثيراً عن قُدرتنا على الإضافة أو النقصان . وقلّ ما سيلاحظُه العالَمُ أو ما سيذكره طويلا ممّا نقوله هنا ، ولكنه لن يَنْسَى أبداً ما فعلوه هنا . إنّ الأَحْرَى أنْ نكرّسَ أنفسَنا — نحن الأحياءَ — للعملِ الذى لم يَتِمّ بعدُ ، ذلك الذى قامَ بإنجازِه بكلّ نُبلٍ أولئك الذين جاهدوا هنا .

إنّ الأَحْرَى بنا أن نكرّسَ أنفسَنا هنا للواجبِ العظيمِ الباقى أمامَنا — حتى نستمدَّ من هؤلاء الموتى المجَّدين وِلاءً مُزْداداً لتلك القضيةِ التى وَهَبُوها هُنا وِلاءهم الكاملَ الأخيرَ ، وحتى تُصمِّمَ تصميمًا قاطعاً على أنّ هؤلاء الموتى لم يكن استشهادُهم عَبَثاً ، وعلى أنّ هذه الأمة ، بعنايةِ الله ، سيكون لها مِيلادٌ جديدٌ من الحريةِ ، وأنّ حكومة الشّعبِ ، بواسطةِ الشّعبِ ، لأجلِ الشعبِ ، لَنْ تَمّحِى من الأَرْضِ » .

* * *

بهذه الـكلماتِ الوديعةِ القويَّةِ ، البليغةِ النافذةِ ، تـكلَّم أبراهامُ لنـكلن لأمته وللأحقاب مِنْ على منبرِ التاريخ ، داعياً بحرارة إيمانه إلى المحافظة على أسلوب الحيـاة الحرَّة الذى يضمن الـكرامة والمساواةَ للجميع . وحين دعا النـاسَ إلى التضامن والتصميم على ألا يَدعُوا استشهاد أولئك الأبطال يذهبُ سُدًى ، بل عليهم أن يستمدّوا من أولئك الموتى المشرَّفينَ إخلاصاً مُزداداً للقضية التى استشهدوا فى سبيلها ، جاءت ألفاظُه البليغةُ فى نُبلٍ مُشْرِقٍ — على الرَّغم من تركيزها المتين — مُشْرِقٍ باليقين ، وبعبقريةِ الذهنِ والخُلُقِ معاً ، فاتّسمتْ على الفَوْرِ بميسم الأدبِ الرفيع الخالد .

***

وبعد مرورِ تسعين عاماً أو تـكادُ أَوْحَتْ إلينا خُطبةُ لِنـكلن الخالدةُ فى جِتِسْبِرْجِ هذا الشِّعرِ :

هٰذى وَصِيَّتُكَ النَّفيسةُ لم تَزَلْ أَلَقاً تَرَجْرَجَ فى الغَمامِ الوَادِقِ
مُسْتَلْهَمَ الأَحْرارِ بين عواصفٍ دُهْمٍ ، وبين فواجعٍ وصواعِقِ
وتَظَلُّ فى بَحْرِ الأَثيرِ مَصونةً ولو انَّها هَبَطَتْ لنا مِنْ حالقِ
تَجْرِى على أمواجِـهِ جَرَيانَهَا مِلْءَ العُصورِ كزاحفاتِ فيالقِ

وَلَئِنْ تَكُنْ خُلِقَتْ لِبِضْعِ دقائقٍ   فسَمَتْ لنا خلقاً سُمُوَّ الخالقِ
سَخِرَتْ مِنَ الأحداثِ حتَّى أَخْرَسَتْ   مُتَصلِّفاً وأَتَتْ على المتحامقِ
تِسعون عاماً أو تكادُ قد انقضَتْ   لمَّا نطقتَ بها كأحكمِ ناطِقِ
وكأنها حُكْمُ القُرونِ فلم تَزَلْ   تَدْوِى لأخصامٍ لنا وأَصادقِ
فى كلٍّ لفظٍ لَذْعَةٌ وَتَحَرُّقٌ   وَيلٌ عَلَى الظُّلْمِ العَتِىِّ الساحقِ
لم يَعْرِفِ الموتَى حياةً مِثْلَها   ذُخِرَتْ وشَعَّتْ مِنْ أَعزِّ حقائقِ
وتَعَلَّقَ الأحياءُ — حينَ تَعلَّقوا   شَغَفاً بها — بأَعزِّ حُلْمٍ صادقِ
واهْتَزَّتِ الأَجْداثُ وهى خواشعٌ   بيدِ الخريفِ مِنَ البيانِ الشائقِ
لا مِنْ رياحٍ سافياتٍ حولها   أو ذِكْرَياتٍ مُرَّةٍ وبوائقِ
إنْ يَفْخَرِ الموتَى ، فَمَنْ أَسْمَعْتَهُمْ   ما قُلتَ قد عاشوا بِفَخْرِ السابقِ
تَكِئُوا على سُرُرِ الزَّمانِ قياصِراً   متضوِّعِين مِنَ الحديثِ العابقِ
وكأنَّهُمْ رُسُلُ (المَسِيح) بِوَعْظِهِ   حُرًّا على الجَبَلِ الفخورِ السامقِ!

***

تيهى (جِتِسْبِرْجُ) العَزيزةُ بالذى   حازَتْ سَماؤُكِ بعدَ تُرْبٍ وامِقِ
فكِلاهما سَمِعَ النِّداءَ وصانَهُ   رُوحاً وجِسْماً ، فى صَدًى وخلائقِ

مِيرَاثُ شَعْبٍ لم يَزَلْ وَطَنَ العُلَى ومَلَاذَ أحرارٍ ومَلْجَأ طَارِقِ

بَلَغَتْ حضارتُه نِهايةَ ذُرْوَةٍ تُرْجَى ، وما خَذَلَتْ تَطَلُّعَ وَاثِقِ

ما ضَرَّهُ أن هَدَّدَ الجبرُوتُ أو أنْ هدَّدَ الحمْقَى بِغَضْبَةِ حانِقِ

شتَّانَ بين الغاصبينَ شِعارُهُمْ سَفْكُ الدّماء وذبذباتُ مُنَافِق

والرائدينَ المُصْلِحِينَ ، شِعارُهم مُثُلٌ تُرَفْرِفُ كاللّواء الخافقِ !

لنكولن الإنسان والفكه

لم يكن لدى لنكلن بطبيعةِ الحالِ أيُّ توَهُّمٍ عن هيئتهِ ، وذات مرّةٍ كان يشرحُ كيف أصبحَ حائزاً لمديةٍ كبيرةٍ من صنفٍ مُعَيَّنٍ ، فقد جاءه رجلٌ لا يعرفُه وبادرَهُ بقوله : « عفواً يا سيّدى ، ولكنَّ معى شيئاً يجب أن يكون لك» ثم ناوله المدية ، فسأله لنكلن أن يشرح له معنى ذلك ، فقال الغريبُ : « إنَّ هذه المدية أُعطيتْ إلىَّ منذ سنين مع التوصية بأن أحتفظَ بها حتى أجد رجلًا أقبحَ صورةً منى . فدعنى يا سيدى أقول إنك عدلًا أهلٌ لها ! » .

وقصةٌ أخرى فى الموضوع ذاته كان يُعْنَى بسردها تتناول كيف وقف مرةً أمامَ المرآةِ وماذا شاهدَ . فقال : « يا لقبحِ صورتى التى شاهدتُها ! لقد تمكّنتْ هذه الحقيقةُ من نفسى فاستقرَّ رأيى على أنّى حتماً أقبحُ رجلٍ فى العالم . جنَّننى هذا الخاطرُ إلى درجةٍ جعلتنى أُصَمِّمُ على أنّى إذا رأيتُ شخصاً أقبحَ فسأضربُهُ بالرّصاص بمجرد رؤيته . ولم يمرّ وقتٌ طويلٌ حتى جاء أَنْدِى *(Andy)* إلى المدينة — (وأَنْدِى هذا محامٍ كان فى مجلس لنكلن عند سَرْدِهِ هذه الحكاية) — وأوّلَ مرةٍ شاهدتُه قلتُ : هذا هو الرجل ! وذهبت إلى المنزل وأنزلتُ

بندقيتى ورُحتُ أتحسسُ فى الطريق منتظراً إيّاه وسرعان ما جاء . فصحتُ : قِفْ يا أندى ؛ مصوّباً بندقيتى إليه . قلْ صلواتك لأنى سأرميك بالرصاص ! فتساءلَ أندى : لماذا يا مستر لنكلن ؟ ماذا جرَى ؟ قلتُ : لقد أقسمتُ أنى إذا رأيتُ رجلاً أقبحَ منى فسأضربه بالرّصاص فوراً . إنك أقبحُ شكلاً بلا ريب ، وعلى ذلك استعدّ للموت ! فقال أندى : أتظنّ حقاً يا مستر لنكلن أنى أقبحُ شكلاً منك ؟ فأجبتُه مؤكّداً : أجلْ ! فأجاب أندى مواجهاً إيّاى : حسناً يامستر لنكلن ! إذا كنت أقبح منك فاقتلنى ! » .

لم يكن لنكلن ليفخرَ بأرومته أكثر من فخره بصورته ، وقد قال ذاتَ مرةٍ : « لستُ أعرف مَنْ كان جدّى ، وإنى لأكثر اهتماماً بمعرفةٍ من سيكون حفيدُه » .

سأله مرةً أحدُهُمْ : «هل تكتب أسرةُ زوجتهِ ، وهم آلُ طُدّ (The Todds) ، اسمَ الأسرةِ بالدال المفردة أم المشدّدة؟ فأجابه لنكلن إنّ جُدْ (God) (يعنى الخالقَ) مكتفٍ بدالٍ واحدةٍ ، وأمّا آل طُدّ فيحتاجون إلى دالين » . وطالبت مرةً سيدةٌ بوظيفة أميرالاى لابنها ، راويةً قائمةً طويلةً من الأجداد الذين اشتركوا فى حروب شتّى للولايات المتحدة . فرفض لنكلن طلبها ملاحظاً : « أظنّ يا سيدتى أنّ أسرتك

صنعت كثيراً للبلاد ، فالوقتُ قد حان لاعطاء آخرين فرصةً ! »

كذلك حاولَ كونتٌ بروميٌّ أن يؤثّرَ فى لنكلن حينما جاء إليه يطلب مركزاً عالياً فى الجيش الأمريكى ، وأخذ يسرد قائمةً طويلةً من الأعمال العظيمة التى قام بها سلفهُ فى جملة قرون . فقاطعه لنكلن بقوله : « حسَناً ! لا ينبغى أن يُقلقك ذلك . لن يقف ذلك فى طريقك إذا ما تصرّفتَ كجنديّ ! » .

كان اتضاعُ لِنكلن وحِذْقُهُ الموهوبُ فى الردِّ متجلّيَيْنِ فى مقابلته دبلوماسياً أجنبياً جاءه فى البيت الأبيض فوجد الرئيسَ يلمّع حذاءه . فتساءلَ الزّائرُ : « ماذا يا حضرة الرئيس ؟ أتلمّع حذاءك ؟ » فأجابه لنكلن : » نعم ! « حذاءَ مَنْ تلمّع أنت ؟ »

وبهذه المناسبة فسّرَ لنكلن مرةً سببَ كثرة إصابته بالبرد قائلاً : إنَّ السبب يرجع إلى أنَّ مُعْظمَ شخصِهِ ماثلٌ على الأرضِ !

وفى حفلة عشاء أخذ أحدُهم يمجّد مؤرّخاً معيَّناً كتب عن اليونان القديمة ، فكان لنكلن يردّد ملاحظتَه أنّه وجدَ ذلك المؤرخ مجهداً فى قراءة كتابته : وأخيراً قال ذلك المقرظ للكاتب المؤرخ : « ولكنك يا حضرة الرئيس لا بدَّ أن تعترف بأنّه لا يوجد أديبٌ

فى جيلنا غاص أعمقَ منه فى ينبوع المعرفة ! » فأجابه لنــكلن : « أجلْ ، ولم يخرج أجَفَّ منه ! » .

وكان لنــكلن فى البيتِ الأبيضِ يَمشقُ تذكُّرَ تجاريبهِ المُسَلِّيةِ كمحامٍ شابٍ فى حَمَلاَتهِ الأولى . وذات مرة ذكر زائرٌ قاضياً كان يعــرفه لنــكلن . فلاحظ لنــكلن : « إنَّ ذلك القاضى كانت له آراء قويةٌ عن الحــكومةِ الصَّارمةِ والوضعِ الدقيقِ لم ألقَ نظيرَه فى رجلٍ آخر » . ذُكر مرةً عنه أنه يشنق الرجل إذا تمخَّطَ فى الشارع ولــكنه يُبطل الحــكمَ إذا لم يُعَيِّنْ فيه أيةُ يدٍ استعملها فى التمخُّط ! »

وكان لنــكلن يذكر قاضياً آخر من ولاية إلينوى كان مرةً يَنظُر فى قضيةٍ ثقيلةٍ بعدَ ظهرِ يومٍ حارٍّ . وعند ما انتهى المحاميان الخصمان من إلقاء خطابيهما الموجَّهين إلى المحلَّفين ، وقفَ القاضى ليُعلنَهم بتكليفه فقال : أيها السادة المحلفون . ثم دفعَ بوحشية زوجاً من الذباب الجائع عن رأسه الأصلع وراح يواصل خطابَه قائلاً : « لقد استمعتم إلى كل الأدلة . فاذا صدقتم كلَّ ما قاله وكيلُ الاتهام ، فقراركم يكون فى مصلحة الاتهام . ولــكن من جهة أخرى إذا صدقتم ما قاله وكيلُ الدفاع ، فعليكم إذن أن يكون قراركم لمصلحة الدفاع .

أما إذا كنتم مَثلى لاتصدّقون ما قاله أيّهما ، فلعنة الله علىّ إذا كنتُ أعرف كيف سيكون تصرفكم ! » .

كان أحدُ الشُراةِ يسوق عربتَه فى الطريق المؤدّى إلى بلدة إسبرنجفيلد *(Springfield)* فاستوقفه لنكان مبادراً إياه بالاستنهام : «هل لك أن تتفضّلَ ياسيدى وتأخذ معطفى إلى البلدة ؟» فأجابه الرجلُ الغريبُ : « بكل سرور ، ولكن كيف ستحصل عليه ثانيةً ؟ » . فقال لنكان : « آه ، بسرعةٍ ، لأننى أنوى أن أبقَى داخله » . وهذا يدلّ على أن لنكان كان فى طليعة الرائدين من المُشاة الجوّالين الذين يستعينون بركوب العربات المجّانى بين حين وحين .

جاءه أحدُ السكان النُداعَى لمدينةٍ خطبَ فيها لنكان بعد أن فرغ لنكان من إلقاء إحدى خُطبه وقال له : « يا أبراهام ! كان ذلك خطاباً سديداً حاذقاً ولكنْ كانت فيه بعض أشياء كانت خارجَ متناوَلِى » . فأجابه لنكان : « إنّى آسفٌ لسماع ذلك لقد كان لدىّ مرةً كلبٌ كان يجد بعضَ الصعوبة مع البراغيث » .

حضر لنكان فى أثناء حملاتهِ الانتخابيةِ بعضَ الصلواتَ الدينيةِ التى كان يقوم بها المحترم بيتر كارترايت *(Peter Cartirright)* وفى موقف من تمارين العبادة طلب المحترم كارترايت من الجميع الذين يريدون

دخول الجنة أن يقفوا . فوقف الجميع مباعداً لنكلن . ثم سأل جميع الذين لا يرغبون في الذهاب إلى الجحيم أن يقفوا ، ومرة أخرى بقىَ لنكلن جالساً . فعلّقَ المحترم كارترايت على سلوكه بلهجةٍ شديدة قائلاً : « إني دَهِشٌ لرؤيتي أبراهام لنكلن هناك غيرَ متأثرٍ لهذين النداءين . فاذا كان المستر لنكلن لا يريد أن يذهب إلى الجنة ولا يريد أن يتجافى الجحيمَ فلعله يحدثنا أين يريد أن يذهب » . فأجابه لنكلن : « إني ذاهبٌ إلى الكونجرس » .

ونهض مرةً أحدَ المستمعين في اجتماع له صائحاً في عصبيةٍ : « إنّ الله القويّ القادر وأبراهام لنكلن كفيلان حقاً بإنقاذ البلاد ! » . فأجابه لنكلن بجفافٍ : « ياصاحبي إنك مصيبٌ نصفَ إصابةٍ » .

وذات مرةٍ بينما كان أحد المحلّفين يُختار ، اعترضَ المحامى الخصمُ نظراً لمعرفة المحلّف المختار بلنكان ، ومثل هذا الاعتراض في تلك الأيام كان يُعتبر مساساً شخصياً بالمحامى ، وبناء على ذلك رفض القاضى المترئّسُ الجلسةَ ذلك الاعتراضَ . ولكن عندما وقف لنكان بدوره لفحص المحلّفين حذا حذوَ المحامى الخصم وشرعَ يسأل كلّ رجلٍ إذا ما كان يعرف المحامى خصمه . وبعد أن ردّ اثنان أو ثلاثة منهم بالإيجاب ، اعترضَ القاضى بقوله : « أنتَ الآن يا مستر لنكلن تضيّع

الوقت . إنّ مجرد معرفة الحلَّف لخصمك لا يجرّده عن أهليته » . فأجابه لنكلن : « كلاّ يا سيدى . ولكنى أخشى أنّ بعض هؤلاء السادة ربّما لا يعرفه ، وهذا يضعنى موضعاً سيئاً » .

ولنا أن نذكر إنذارَ لنكلن بأنّه لا يوجد رجلٌ لديه ذاكرةٌ قويةٌ كافيةٌ لأن تجعله كاذباً ناجحاً ، ووصفَه هاريت بيتشر استو *Harriet Beacher Stowe* « بالمرأة الصغيرة التى ألّفتْ الكتابَ الكبير » ، وإطنابَه الوصفىّ لشىء بأنه رَهِفٌ كالحساء المصنوع من غَلْى ظِلٍّ حمامةٍ جُوِّعَتْ حتى الموت ! » . وربّما كان علينا أيضاً أن نذكر حادثة من عبادة البطولة فى شخص لنكلن رواها أستاذ بجامعة وسكنسن ، فقد كتب طالبٌ جامعىٌّ مبتدىء (*Freshman*) — أىْ فِى السنة الأولى — « إن لنكلن وُلِدَ فِى كوخ خشبىّ بناه هو بيديْه ! » .

في الأدب والفن والموسيقى

فى حديقة البلور (قصيدة)

IN THE CRYSTAL GARDEN WASHINGTON, D.C.

وَقفنا لدَى «الشلّال» وَقفة عابدٍ ... ففيه لنا نورٌ وفيه ضِرَامُ

تُغازِلهُ الشمسُ الحَيِيَّةُ مِثلما ... تغازلُه الأشجارُ حين تنامُ

وهذى نجومٌ أُطلِعَتْ دونَ ليلها ... وألوانُها فوقَ الغصون مُدامُ

ومنْ حولها الأدغالُ، لكنْ تهذّبَتْ ... فلا ريبةٌ للناظرين تُشامُ

يُغنِّى خريرُ الماء عذباً كأنما ... شَدَتْ خلفَهُ حورٌ ورفَّ سلامُ

وهذى الظِّلالُ الناعِساتُ تثاءبَتْ ... وأسكرَها للحالمينَ غرامُ

نَسيتُ مُرُورَ الوقتِ أوقولَ صاحبى ... فما هو وقتٌ ينقضى وكلامُ ؟

هُنا مَظهرُ الجنّاتِ بل ذاكَ كُنهُها ... وعمَّا عداها فى الحياةِ يُصامُ

تطالَعتُ مفتوناً وحولِىَ أُمَّةٌ ... منَ النَّبتِ، بل دُنيا كذاكَ تُقامُ

مَشاهِدُ شتَّى مِنْ أراضٍ قَصيَّةٍ ... يُجمِّعُها للعارفينَ نظامُ

ويشمَلُها دِفءٌ[1] وأحسَبُ أنها ... بألفتِها تغنَى غِنًى وترامُ

تآخَتْ وإنْ تُنسَبْ إلى كُلِّ موطنٍ ... وباعدَها همٌّ وبانَ خِصامُ

فكيفَ بنُو الإنسانِ، وهو متوَّجٌ ... كأنَّ ضياءَ العقلِ فيه ظلامُ ؟!

أحمد زكى أبو شادى

---

(١) إشارة إلى التدفئة الصناعية الحديثة .

منظر شامل للأدب الأمريكي

فَنُّ التّأليف كفنّ التعقيب لا يُقاس بالحجم ، وإنّما بالنّظرات الثابتة . وقد يكون التأليفُ أو التعقيبُ الموجَزُ أشقَّ من عكسهِ ، لأنه يعتمدُ على النظرة الشاملةِ النافذةِ وعلى التركيزِ فى الأسلوب وعلى الإيجاز غيرِ المخلّ ، وعلى الحفاوةِ بصَميم اللُّبابِ ، مع العَرْضِ فِي أسلوبٍ جذّابٍ ، بحيث يتأَتّى بالايحاء للقارئ ويُزجيه إلى التوسُّع فى الاطّلاع .

وقد يكون من الضّروريّ لمن يَبدأُ بدراسةِ الأدبِ الأمريكيّ أن يُلِمَّ أوّلاً بهذه المعرفةِ العامّةِ فَتُهَيِّأَهُ للتوسُّع الوافى فيما يَوَدُّ التبحُّرَ فيه من أصول الأدبِ الأمريكيّ . ومن أجلِ ذلك وجبَ التدقيقُ فى اختيار الموجَزاتِ المرشدةِ قبلَ العنايةِ بالبُحوثِ المتخصّصةِ ، فإنَّ الارشادَ الأوّلَ الخاطِئَ المنفِّرَ ليكونُ أبلغ ضرراً من المعرفة الناقصة .

وفى مقدّمة التصانيف التى نُشير بالاطلاع عليها تمهيداً لتذوُّقِ الأدب الأمريكيّ ، الكتابُ الجامعُ المسمّى (مَنظر شامل للأدبِ الأمريكيّ) تأليف الأستاذ تاسكَرْ وِتام *Panorama of American Literature by W. Tasker Witham* . فقد جمعَ فى ذَوْقٍ بديعٍ ما بين الفَنِّ الأدبيِّ والفنِّ التصويريّ ، إذْ فيه أكثرُ من ثلاثمائةٍ من الصُّوَر

والرُّسومِ التوضيحيّةِ المتصلةِ بسيَر نَيفٍ ومائةٍ من شوامخِ الأدبِ الأمريكىّ ، ولا تزيّنُ هذه الصُّورُ والرسُومُ الـكتابَ بأكثرَ مما يُزيّنهُ الأسلوبُ المترسّـل السّلسُ الجميلُ الذى امتازَ به المؤلّفُ ، وقد تناولَ عُصورَ الأدبِ الأمريكىِّ من وقتِ جون سميث *John Smtih* أيامَ الاستعمار الانجليزىّ الأول إلى وقت جون هِرْسى *John Hersey* فى زمننا الحاضر ، ملخّصًا صفات كلِّ أديبٍ جهيرٍ على ضَوْء اهتمام هذا العَصْرِ به وأهمّ أعمالِه ، مع مقتطفاتٍ أدبيةٍ عديدةٍ ، كما أنّ البيانات المجاورة لـكلّ صورةٍ ورسمٍ هى فى ذاتها ثقافةٌ أدبيةٌ مفيدةٌ . وهذا الـكتابُ مطبوعٌ أفخمَ طبعٍ على ورقٍ صقيلٍ فاخرٍ فى تِسْعٍ وثمانينَ وثلاثمائةِ صفحةٍ من الحجم الـكبير (١٠ × ٧ بوصات) بعنايةِ شركةِ استيفن ديى *Stephen Daye Press*

إنّ الأستاذ وِتام بوصفهِ أستاذَ الأدبِ الانجليزىِّ بكلية هَارْتوِكْ *Hartwick* الشهيرة — فى مقدّمةِ مَنْ تؤهّلهم مَواهِبُهم لمثلِ هذا التّأليفِ . وقد آمَنَ طُولَ عُمْرِه بأنّ دراسةَ الأدبِ أشْبَهُ ما تـكونُ برحلةٍ خِلالَ الجبالِ يحتاجُ فيها الرحّالون إلى دليلٍ ماهرٍ ليَصْعَدَ بهِمْ إلى القِمَم الشّامخةِ التى لم تُبلَغ قَبلاً ، ليُرِيَهُمُ المَظْهَرَ الشّاملَ للجمالِ الذى يَحُفُّ بهم وينفحُهم بمُوحياتِه . وقد جاء الاستاذُ وِتام فى كتابِه هذا ممثّلاً دَوْرَ

ذلك الدليلِ النّابه الذى يُرِى مَنْ يصطحبونه الجمالَ الذِى حولَه وحولَهم ، لا عن ارتفاعِه فحسب بل تأمُّلاً معاً عن كثبٍ فى الصُّور المتابعةِ التى تؤلِّفُ وَحْدَتَها صُورةً عامَّةً جامعةً ساحرةً . وأولُ العواملِ التى نسّقَ بموجبها كتابَه هو إقبالُ النُّقّادِ والجمهورِ على أدباء معيَّنين واعترافُهم بمنزلتهم ، وهو فى ذلك ينهجُ نهْجًا تقليديًا لأنَّه يتأثّر فى اختياره بحكم السابقين أو بحكم قرّاء هذا الجيل الذين يميلون أكثر إلى الشعراء والأدباء المعاصرِين ، فلا يَنْهَجُ نَهْجًا مستقلاً قِوامُه تقديرُه الشخصىُّ ، كيفما كانت أحكامُ سواه ، و إنْ عُدُّوا بالآلاف . ومع ذلك فإنَّ العاملَ الثانى الذى تأثّر به أصلحُ من العاملِ الأول المتقدّم الذكرِ ، لأنَّ قوامه القيمةُ المستقِرّةُ أو البعيدةُ المَدَى لتلك الأعمالِ الأدبيةِ أو أثرُها فى كُتّابٍ آخرين . و بناء على هذا الاعتبار أغفلَ الأستاذُ وِتام ذكرَ أدباء فى عهد الاستعمار مثل جون ونثروب *John Winthrop* وساره كمِبل نايت *Sarah Kemele Knight* وأمثالِهما ممَّنْ يتردّدُ ذِكرُهم عادةً فى كتب تاريخ الأدب الأمريكى ، بينما فى الوقت ذاته ضمَّنَ كتابَه سِيَرَ أدباء من أمثال نُوح وِبستر *Noah Webster* ، وپُول إلمر مُور *Paul Elmer More* ، وإرفنج بابِّت *Irving Babbitt* ، و هـ . ل . مِنكن *H. L. Mencken* الذين اشتهروا بتأثيرهم فى آداب سواهم . وأمّا العاملُ

الثالثُ الذى يَنصبُّ على اختياره لأدباء القرن العشرين فيكاد يكون شبيهاً بالعاملِ الأولِ : ألا وهو التنويعُ فى الاختيار ، ولو وقعَ اختياره على أدباء أحطَّ منزلةً ممن أغفلهم . مِثالُ ذلك ذِكرُه لويد دُجلاس Lloyd C. Douglas لمجرَّد أنه صاحبُ قِصَصٍ إلهامية يُحبُّها كثيرون ، ولو أنه لا خَطَرٌ أدبيٌّ كبيرٌ لها ، وهذا ينطبقُ أيضاً على إدنا فِرْبَر Edna Ferbar التى اشتهرت بقِصَصِها الغرامية فحسبُ . وما نعُدُّ هذا عاملاً أدبياً صالحاً ، ولا العاملَ الأولَ الذى ساقَه باهتمامِه بالمشهورينَ إلى إغفالِ عددٍ من نوابغ أدباءِ الشباب الذين ظهرُوا فى هذا الجيل ، وفى مقدِّمتهم الشاعرُ كارل شابيرو Karl Shapiro . والمؤلِّفُ المسرحيُّ تنِّيسى وليمز Tennessee Willams . وقد اعترفَ المؤلِّفُ بكل ذلك ، وبذلك جعل قرَّاءه على بيِّنةٍ من خطَّتِه التى لا نقرُّها ، على الرغمِ من تقديرِنا للجمالِ الأدبيِّ الفنيِّ المتجلِّى فى جميعِ تآليفه .

أمَّا عن المؤلِّفين الأمريكيين الذين وُلِدُوا خارجَ أمريكا أو تخلَّوا عن جنسيَّتِهمْ الأمريكيةِ فقد وَقَفَ الأستاذ تاشكر وِتَام تجاهَهم مَوْقفاً معقولاً ، إذْ جعلَ حُكْمَه على إدماجهم فى مؤلَّفِه قائماً على مَبلغِ تأثرِهم الأساسىّ أو الغالب ، فإذا كان أمريكياً اعتبرَهم صالحين لدراستِه إيَّاهم ، ما داموا من الناحية الأدبيّة جديرينَ بذلك . فمثلاً هناك عددٌ

من الأدباء فى العهد الاستعمارى الأول وُلدوا بانجلترا و بعضهم عاد إليها ولكنهم بحكم تأثُّرهم الغالبِ معدودونَ أمريكيينَ ، ولذلك نجدُهُمْ مذكورينَ فى هذا الكتابِ ، وكذلك فى كتب التاريخ للأدب الأمريكى عادةً . فهذا توماس پين Thomas Paine يُعَدُّ أمريكياً أكثر منه انجليزياً فى رُوح كِتابته ، وكذلك جُورج سانتايانا Gearqe Santayana الذى تَعَلَّمَ فى أمريكا وتأثَّرَ بتقاليد نيو إنجلاند الطُّهريةِ ، ومثله هنرى جيمس Henry James على الرغم من عالميَّته فقد احتفظَ بِرُوحهِ الأمريكية . وإنْ نَنْسَ لا نَنْسَ القصصىَّ الشهيرَ شولم آش Sholem Asch الذى وإنْ كان قد وفَدَ على أمريكا وله حَظُّهُ من الشهرة إلاَّ أن إقامتَه الطويلَة فيها طبعَتْه بالطابَعِ الأمريكىّ ، وفى أمريكا بالذات أخرجَ طائفةً من المؤلَّفات الممتازةِ ، وعلى نقيضهِ الأديبُ الشاعر ت. س. إليوت T. S. Ellot الذى يُعَدُّ الآن انجليزياً من وجهةِ نظره أكثر منه أمريكياً ، ولكنْ من حيثُ إنه أمريكىٌّ المَوْلدِ وأمريكىُّ التعليم ، وأشعارُه الأولى نظمَها تحت سماء أمريكا فقد عدَّهُ المؤلِّفُ من الوُجهةِ الأدبية أمريكياً وأدمجَه فى كتابه القيِّم ولو أنه تجنَّس بالجنسيَّةِ البريطانية .

إنّ المنظر الشاملَ للأدب الأمريكيّ يتناولُ :

(١) الأدبَ فى العهدِ الاستعماريّ ، وهو يمتــدُّ من سنةِ ألفٍ وستّمائةٍ وسبعٍ إلى سنةِ ألفٍ وثمانمائةٍ .

(٢) الاستقلالَ الأدبىّ ، وهو يمتدُّ من سنةِ ألفٍ وثمانمائةٍ إلى سنة ألفٍ وثمانمائةٍ وستين .

(٣) الاستقلالَ القِطاعىّ أو الموضعىّ ، وهو يمتدُّ من سنةِ ألفٍ وثمانمائةٍ وستين إلى سنةِ ألفٍ وثمانمائةٍ وتسعين .

(٤) نهضة المذهب الواقعىّ ، من سنة ألفٍ وثمانمائةٍ وتسعينَ إلى سنةِ ألفٍ وتسعمائةٍ وعشرين .

(٥) أخيراً استمرارَ المذهبِ الواقعىّ مع التجاريبِ الأدبيــةِ الجديدةِ ، من سنة ألفٍ وتسعمائةٍ وعشرين إلى يومنا هذا .

وهذا المنظرُ يَشملُ ثلاثة قرونٍ ونصفَ القرنِ ، كما يَشملُ رجالاً ونساء من عناصرَ ودياناتٍ وأروماتٍ متعدّدةٍ جاءتْ من قِطاعاتٍ أو بقاع نائيةٍ ، ولـكنّهم جميعاً تأثّروا بالرّوح الأمريكيةِ فجاءت آثارُهم على تنوّعها من رُوحِ هذه البلاد . ويقول الأستاذ وِتام إنّه فى كلّ جيلٍ وعصرٍ كانت تَتجلّى الرُّوحُ الأمريكيةُ فى الأدبِ الأمريكىّ .

فالاهتمامُ بالكشف والمغامرة ظاهرٌ فى الكتاباتِ الرائدةِ التى دبَّجها القبطان جون سميث Captain John Smith ووليم برادفور William Bradford ، فى حين أنّ آلَ ماثر Mather وجوناثان إدواردز Jonathan Edwards يمثلون التحامُل والتحيُّز الدينىّ الذى عُرِفَ عن الطُّهر يِّينَ الأوائلِ فى نيو إنجلاند . وأمّا توماس بين Thomas Paine وفيليب فرينو Philip Freneau فتتجلّى فى كتابتهما الحماسةُ الوطنيةُ والتشبُّثُ بالحرّية اللذان أشعلاَ الثورةَ الأمريكيةَ . وتزداد الحريةُ البيانيةُ فى سنوات الحرّيةِ الأولى ، كما يتجلّى اللّونُ القصصىُّ المحلّىُّ إبّانَ عهد الحرْب الأهلية حيث لكلّ منطقةٍ كبرياؤها الحلّية وزَهْوَها بذاتها . ثم يجىء دوْرُ الأدبِ الواقعىّ الذى صَحِبَ التّزَعْزُعَ المادّىَّ فى أواخرِ القرنِ التاسعِ عَشَرَ وأوائلِ القرنِ العشرينِ . ويَعقِبُهُ دوْرُ السُّخْرِيَةِ اللّاذعة على إثْر الحرب العالميّة الأولى ، إذْ خاضتْ أمريكا غِمارَها وهى تحْلُمُ بِطُوبَى جديدةٍ لم تَتَحَقّقْ بل تحقّق عكسُهاَ ، فانتابَتِ الشبّانَ المستنيرينَ الذين اشتركوا فيها مَوْجَةٌ من اليأس الشديد والتهكم اللّاذع ، وكان بين الرّائدينَ فى هذا المَيْدان ماكسويل أندرسن Maxwell Anderson وإرنست هِمِنْجوِى Ernest Hemingway ووليم فُولكنر Wlliam

وقد استمرّتْ هذه الواقعيّةُ المؤلمة فى الأدبِ الأمريكيّ ، ولو أنَّ الحربَ العالميّةَ الثانيةَ لم تخدع الشعبَ الأمريكيّ كما خدعَتْه الحربُ الأولى عن عواقِبها . ومن الأسماء اللّامعةِ فى الأدب الأمريكيّ الحديث فولكنر ***Faulkner*** وفارّل ***Farrell*** ورايط ***Wright***. والنزعةُ الجديدةُ وإن تكن واقعية ولا تَمُتُّ بصلةٍ إلى النَّزْعَةِ الرُّمانسية التى كانت متغلّبةً فى القرن التاسع عشَر ، إلّا أنها ذات صَبغةٍ فلسفيةٍ عمليةٍ وشِعارُها الذى تَدورُ حولَهُ هو أنَّه على الإنسانِ أن يؤْمِنَ بإمكانِ نُشوء عالمٍ أفضل ، لأنَّه إذا لم يُؤْمنْ بذلك إيماناً كافياً لكفاحه فى سبيله فلن يَحْصُلَ على هذا العالم ، وإذا لم يحصل عليه عاجلاً فستُفنيه الأحداثُ حتْماً .

والخُلاصةُ أنَّ الأدبَ الأمريكيّ بمجموع عُصُوره يمثّل ثَوْرَةً نفسيةً جديرةً بالدَّرْسِ وكفيلةً بالمُتْعَة ، وهو فى وقتِنا الحاضر يتميَّز بنزعةٍ إنسانيةٍ تعاونيةٍ ، وبالدَّعوةِ إلى التآخى البشرىّ ، وقد كان بين الرائدين لذلك وِنْدِل وِلكى ***Wendell Welkie*** فى كتابه الشهير (عالَمٌ واحدٌ) ***One World*** .

الأدب المهجري في أمريكا الشمالية

إذا ذُكر الأدبُ المَهجريُّ فى أمريكا الشماليَّةِ فإنَّ أولَ ما يتَّجهُ إليه الانتباهُ صِحافتُها — وهى صحافةٌ رشيقةٌ حيَّةٌ تمتاز على كثير من الصُّحفِ العربية فى الشرق بمراعاتها التمييزَ ما بين الأخبار المجرَّدةِ و بين التعليقات ، فلا تَخلطُ بينهما بأىِّ حالٍ وتترفَّع بذلك عن التأثير الخفىِّ .

وهذا مبدأٌ مقدَّسٌ عند الصحافة الأمريكية عامةً ، وهو فى ذاته مَظهرٌ لتكييف أدبها .

ومع أنه لا توجد فى الوقت الحاضر مجلةٌ أدبيةٌ عربيةٌ فى الولايات المتحدة الأمريكية ، إلا أنَّ صحفها تعوّض عن ذلك إلى حدٍ كبيرٍ بمجموع محتوياتها . والمقالاتُ الأدبية التى تظهر فى (السائح) وفى (السمير) وفى (الهدى) — وكلها من صُحُفِ نيويورك — أشهر من أن تعرَّف .

وإلى جانبها صُحُفٌ أخرى لها جولاتٌ أدبيةٌ أحياناً (كمرآة الغرب) فى نيويورك ، و (نهضة العرب) فى ديترويت ، و (البيان) فى وشنطن . وشاءت جريدة (الإصلاح) النيويوركية أن تُصدرَ عدداً أدبياً ممتازاً فى كلِّ شهر ، ولكنها لم توفَّقْ إلى تحقيق هذه الأمنية ، ويخصها بنفحاته من وقت إلى آخر الشاعر المهجريُّ الفكِهُ الشهيرُ أسعد رستم .

بَيْدَ أنَّ أكثر ما يشغلُ الصحافةَ المهجرية هو الأدبُ السياسىّ ، وأحياناً تُعْنَى بالأدبِ الُخلقى كما نرى فى افتتاحيات (الإصلاح) للدكتور شوريز ، أو بالأدب الاجتماعى كما نرى فى افتتاحيات (الهدى) للآنسة مارى مكرزل ، أو بالمثاليات العربية كما نرى فى افتتاحيات (نهضة العرب) لفيليب العقل ، أو بالأوضاع المقارنة بين الحضارة الأمريكية وسواها كما نرى فى افتتاحيات (السمير) لإيليا أبى ماضى ، أو بفلسفة السياسة الإنسانية كما نرى فى افتتاحيات (السائح) لعبد المسيح حدّاد .

أما موضوعاتُ هذه الصُّحف فيمكن تقسيمُها إلى قسمين : أحدُهما عامٌّ وهو مِرآةُ الحياةِ الأمريكية على تبايُنِ أوضاعها ، والآخرُ خاصٌّ يتعلّق بالمهاجرين وبأوطانِهم الأصلية . والقسمُ الأولُ تقدُّمىٌّ شائقٌ لأنه مرآةٌ مصغَّرةٌ لحضارةِ العالم الجديد ، والقسمُ الثانى رجعىٌّ طائفىٌّ ، وكثيراً ما يكون شخصياً ، وفى هذا تتورَّط جميعُ صُحف المَهْجَر دون استثناء ، حتى أنّ جريدة (الهدى) المعتبرة التى تُساند جمعية (النهضة اللبنانية) تُعْنَى سنوياً بإقامةِ ما يُدْعَى (المهرجان اللبنانى الكبير) على اعتبار أنه مهرجانٌ وطنىٌّ صرفٌ ، وهذا ما حسبناه فى مَطلع قُدومنا إلى الولايات المتحدة ، فإذا بنا نتبيَّنُه مهرجاناً طائفياً مارونياً دينىّ الصبغة ، لا أثر للمسلمين فيه ، مع أنهم يؤلّفون نصفَ سكان لُبنان أو أكثر ،

وكان الأَوْلَى بهذا المهرجان أن يكون مستقلًا استقلالًا تاماً عن الأديان . ولكنَّ الحقيقة التى لا نكران فيها أنَّ جميعَ صحفِ المهجر دون استثناء تقريباً ذاتُ صبغةٍ طائفيةٍ دينيةٍ تؤثر على محصولِها الأدبى ، ولعلَّ أبعدَها عن ذلك جريدةُ (السَّائح) التى نشأتْ لساناً (للرابطة القلمية) فى نيويورك منذ أربعين عاماً ويحررها أعرقُ أساطين الأدب المهجرىّ وهو عبد المسيح حدَّاد .

وجريدةُ (السائح) أشبهُ ما تكون بمجلّةٍ أدبيّةٍ ، وهى تَصدرُ مرّتين فى الأسبوع ، وتتلاقَى فيها أقلامٌ كثيرةٌ لناثرينَ وناظمينَ بعضهمُ من وراء البحار . وتأتى بعدها جريدةُ (السّمير) اليومية النيويوركية فى العناية بالأدبيّات ، بحيث إذا أرادَ مؤلّفٌ أن يَضَعَ كتاباً يؤرِّخ به الأدب المعاصر فى أمريكا الشمالية واقتباسَ نماذجَ منوّعَةٍ منه ، وعلى الأَخَصِّ من الشِّعر ، لما وجدَ أفضلَ من هاتين الجريدتين مَرجعاً لدراستهِ واقتباسِه ، وإنْ لم تَخْلُ الصُّحُفُ الأُخرى من نماذجَ أدبيَّةٍ طيّبةٍ بين حينٍ وآخرَ مثل مقالات الأميرة نجلا أبى اللمع معلوف الشهيرة التى تَخُصُّ بها جريدةَ (الهُدَى) بعنوان «أحسن ما قرأتُ وما سمعتُ» ، ومثل مقالات السيد عبد الله برّى فى جريدة (نهضة العرب) التى تصدر عن مدينة ديترويت .

وإذا انتقلنا من الموضوعات العامّة لهذه الصحف، وهى جدُّ منوّعةٍ وعابقةٌ غالباً بنفحات العالم الجديد، ونظرنا فى أساليبها، وجدنا أكثرَها يميل إلى الإيجاز البليغ الذى يوفّر الفراغ والجهدَ، وهذا ينطبقُ حتى على الشعر المهجرىّ. وهذا التحرُّرُ البيانىُّ من شوائب الثرثرةِ والاسهاب المملّ، وهذه العنايةُ بالتركيز الذى يطابق مقتضى الحال، وهذا الشغَفُ بالتجديد — كلُّ هذه الدوافع والمظاهرِ ماعنَتْ يومًا قَطْعَ الصلة بالأساليب الكلاسيكيةِ المأثورةِ، بل إنّ كثيراً من النثر والنظم (الذى تَطْلُعُ علينا به هذه الصُّحفُ) كأنّه من صياغةِ المنشئينَ المبدعينَ فى أفضل عهود العصر العباسى، ولكنّه يمتاز برشاقةٍ جديدةٍ، كما يمتاز بنُبوِّهِ عن اللّغو. استمعْ مثلاً إلى هذه الأبيات الكلاسيكية الأسلوب عن عيد الشُكر — « *Thanksgiving Day* » للشاعر المهجرىّ نعمة الحاج من قصيدته فى هذا العيد الأمريكىّ: —

رأيتُ الناسَ بالأفراح فى ذا العيد أشباهَا

وكلٌّ فى الحيـــاةِ له أمانىُّ تمنّاهَا

ولى قلبٌ يظَلُّ على عهودِ الحُبِّ يَرعاهَا

خَفوقٌ كلّما ذُكرتْ حبيبتُه وناجاهَا

مَشُوقٌ لا يزال إلى لِقاها يزفرُ الآهَا

يَرَى فى البدر أو فى الشمسِ ما طَلَعَا محيَّاها

ويَسْمَعُ فى صَدَاحِ الطَّيْرِ صوتاً عن ثَنَايَاهَا

وَيَنْشَقُ فى عبيرِ الوردِ عند الصُّبح ريَّاهَا

ويَشْقَى حين يفقدُها ويَسْعَدُ حينَ يَلقاهَا

هناء القلب سمَّاها أبوها حـــين سمَّاهَا

فما أحلى الذى تُدْعَى به عندى وأحلاهَا

ولا أهوى البقاء ، ولا أُحِبُّ العيشَ لولاهَا

ألا قولوا لهـا إنِّى على الحالَيْنِ أهْوَاهَا

ففى قُربٍ وفى بعدٍ وحاشا القلبَ يَنْسَاهَا

سألتُ الله يحيينى مَدَى عُمْـــرى وإيَّاهَا

لأنظرَها وتنظرَنى مِثالَ الحُبِّ عَيْناهَا

لِأُكْرِمَها وأخـدمَها وألثمَ دائماً فاهَا

فعيدى يومَ ألقاها وفيـــه أشـكر الله !

فهذا مِثالٌ من الشعر المطبوع الذى أرسلَه صاحبُه على السجيَّة كما كان يصنع البحترى .

ومِثْلُه هذا الشعرُ لإيليا أبى ماضى فى « الشّباب والحُبّ » : —

بَكَيْتَ الصِّبَا مِنْ قَبْلِ أن يذهبَ الصِّبا
فياليت شعرى ما تقول إذا وَلَّى ؟
توهَّمتَه يَبْقَى إذا أنتَ صُنْتَه
عن الشَّفَةِ الحمراء والمقلةِ الكَحْلا
وخِلْتَ الهَوَى جهلاً ، فلم يكنِ الهُدَى
أخيراً سِوَى الأمرِ الذى خِلْتَه جَهْلاَ
خَشِيتَ عليه أن يُطَوِّحَه الهوى
فألقاكَ هذا الخوفُ فى الهوَّةِ السُّفْلَى
أتُلْجِمُ ماءَ النهرِ عن جريانهِ
مخافةَ أنَ يفْنَى ؟ إذنْ فاشربِ الوَحْلاَ !
سَيَبْلَى الصِّبَا مهما حَرِصْتَ على الصِّبَا
فَدَعْهُ يَذوقُ الحبَّ مِنْ قبل أن يَبْلَى
فما دِيمَةٌ صَبَّتْ على الصَّخرِ ماءها
فما أنبتتْ زَهْراً ولا أطْلَعَتْ بَقْلاَ
بأضيعَ مِنْ بَرْدِ الشَّبابِ على أمرئٍ
إذا استطعَمتْهُ النَّفْسُ أطْعَمَها العَذْلاَ !

ومَهما نوّع أدباء المَهجر فى الأساليبِ ، وعلى الأخصّ فى النظمِ ، فقد كان ولا يزال للأسلوبِ الكلاسيكىّ طرافةٌ عندهم لأنَّهم يتناولونه تناولاً رشيقاً فيبدعونَ فيه ، حتى جبران خليل جبران لم يفته الإبداعُ فى هذا الأسلوب . وليست هناك مشقّةٌ فى التمييز بين الأسلوب الكلاسيكىّ المهجرىّ ونظيرِه فى الأقطار العربية الأصيلة ، فالأولُ يُعْنَى عادةً بسبيكةِ الفكرة والعاطفة والخيال بالرغم من التزام القالَبِ الاتّباعىّ ، حينما الثانى يُشْغَلُ بالصياغة والرنين الموسيقى . ولذلك نجد بين النقاد التقليديّين فى الأقطار العربية مَنْ لا يتذوقون ذلك الشِّعْرَ المهجرىّ ، بل إنَّهم ليستصغرونه ويتندّرون على حسابه ، وكلٌّ لذتِهم فى التشابيهِ والاستعاراتِ المألوفةِ وموسيقى الرنينِ التى خدّرتْ أذهانَ العَرَبِ وجَنَتْ على أحكامِهم قُروناً ، ولا تزال !

والأدبُ المَهجرىُّ مشغوفٌ بألوان من الشعر المنثور حتى فى الموضوعاتِ المألوفةِ ، كما أنّه مشغوفٌ بالنظم المجزوء المنوّع ، وهو فى كلّ هذا يجارى الأدبَ الأمريكىّ . ولكننا نجدُ فى الشّرقِ العربىّ ذاتِه منذ نصفِ قرنٍ بل أكثرَ ماهداً مُبدعاً كخليل مَطران يُعْنَى بكلّ هذا ويُذيعُه مِنْ عندياّته .

للأدبِ المهجرىّ طابعٌ خاصٌّ من الحنينِ القوىّ إلى الوطنِ الأولِ

حتى ليتلوّنَ به شعرُ حديثي العهد بالهجرة أنفسهم ، وكثيراً ما يَقْتَرِنُ الحنينُ بالسُّخْطِ على مضطهديهم الذين ألجأوهم إلى الهجرة وخصوصاً إذا كان أولئك الباغون من الدّخلاء الأجانب كما ترَى فى هذه القصيدة الموسومة « حنين » لأحد أولئك الشعراء المهجريين : —

وطنى ! رأيتُكَ فى الربيعِ ، فعِطرُهُ ... حولِى شَذَاكَ بِرَعْشَةٍ كتلهُّفِى

ورأيتُ أيامَ الشـباب بلابلًا ... غَنَّتْ ، ونُوراً شاق غيرَ مزيّفِ

ورأيتُ أيامَ اغترابى كُلّهـا ... نَبْضَ العليلِ وخفْقَ قلبِ المُوجَفُ

تَتَباطأُ الأعـوامُ وهى سريعةٌ ... لخواطرى ومريرةٌ كترشّـفى

أبَدًا أحِنُّ اليكَ ، غيرَ مُؤَمِّلٍ ... حظًّا سوى هذا الحنين المُتْلِفِ

والمجدُ أن ألقـاكَ حُرًّا رافلا ... بِمُلَاكَ ، لا أرجوكَ يوماً مُنصِفِى

لا يَرتجى الأحرارُ يوماً مَغْنَمًا ... غيرَ العذابِ وغيرَ كيْدِ المُرْجِفِ

فى الرَّوْعِ لا يَنْسَى الوَرَى إيذاءهم ... لـكنّهُمْ يُنْسَونَ عند التَّقَصُّفِ

أهلًا بعطرِكَ ! لا أُبالِى بَعْدَهُ ... أعَرَفْتَ ماضَحَّيْتُ أم لم تعرِفِ

هو رَجْعُ أشواقى إليكَ تُعيدهُ ... شِعراً على النَّسماتِ جِدَّ مُؤَلَّفِ

قالوا : جُنِنْتَ ! نعَمْ جُنِنْتُ وقد غَدَا ... ذاكَ الدَّخيلُ مُضَيِّعى ومُعَنِّفِى

لا تَنهرونى إن ضَحِكْتُ وقد بَكَى ... حولِى الربيعُ لِغُرْبَتِى وتَعَفُّفِى !

لا تَنهرونی إنْ بکیتُ ومَوْطِنِی نَهْبٌ لـکلِّ مُعَرْبدٍ متفلسفِ !
لا تَنهرونی إنْ شُغِلتُ بِحُبّهِ رَغْمَ الْجُناةِ علیّ دُونَ تأسُّفِ !
لا تَنهرونی إنْ حَلَمْتُ بکلِّ ما عانیتُ فیه کأنّه حَظُّ الوَفِی !
لا تَنهرونی عند نجوایَ ، فـکم أهفو لاوصافٍ له لم تُوصَفِ !
لا تَنهرونی حین خِلتم أنّنی أغْنَی بمـا حولی یَهَشُّ وأکتفی !
لا تَنهرونی إنْ یَلَجَّ بیَ الهوَی فَطَغَی کطُغْیَانِ العَذُولِ المُلْحِفِ !
لا تَنهرونی إنْ تَبَلْبَلَ خاطری فالـکونُ من حولی قرینُ تَشَوُّفی![1]
لا تِنهرونی ! قد رضیتُ تَهَدُّمِی وکأنّنی آثارُ قاعٍ صَفْصَفِ !
لا تَنهرونی واسـألوا عن لوعتی أمّی (الطبیعةَ) فی أسًی وتَلَطُّفِ !
لا تَنهرونی ! رُبَّ صخرٍ جاثمٍ یرنو إلَیَّ یَوَدُّ لو هو مُسْعِفِی !

کذلك للأدب المَهجریّ فی أمریکا الشمالیة طابَعُ التَّحرر الفـکریّ إلی أبعد الحدود التی تُملیها الـکرامةُ الإنسانیةُ ، إلاّ حیثما تتدخّلُ المُنجهیّةُ الدینیّةُ أو العنصریّةُ فتفسُدُ ذلك الأدبَ وتُرجِعه إلی الوراء أجیالاً ، وهذا الطّرازُ الرجعیُّ من الأدب لا یَنسبهُ النّقّادُ

(١) تشوفی : تطلعی .

إلى المَهجرِ ، وإنّما يعدُّونه من تمايات الشرقِ العربيِّ التي يَجِبُ نَبْذُهَا .

وإذا استثنينا كتاباتِ جبران وأشعارَه الصوفيّةَ فالأدبُ المهجريُّ عامةً أدبٌ واقعيٌّ تَلمّسُهُ قديماً فى كتابات أمين الريحانى وميخائيل نعيمة . ولم يمُتْ من الأدبْ المهجريّ للجيل الماضى إلاّ الأدبُ التصوّفيُّ الذى استمتعَ به الأمريكيّون مترجَمًا كلونٍ من ألوان التسلية الشعرية . أمّا فى الوقت الحاضر فجميعُ الصُّحفِ العربيةِ المَهجريةِ ، وكذلك حلقاتُ (رابطة منيرفا) الأدبيّة التى تُعقد شهرياً فى جامعة كولومبيا بنيويورك ، فيّاضةٌ بالبحوثِ الحيويّةِ ، كما أنَّ الشعرَ المهجريّ فى أمريكا الشمالية — على قلة ما يُنشر منه — عالى القَدْر ، وبعضُ هذا الشعر تحتفى به مجلاتٌ خارجَ الولايات المتحدة (كالأديب) فى بيروت ، و (المقتطف) فى القاهرة ، و(العُصبة) فى سان باولو . وفى طليعة شعراء الولايات المتحدة الشيوخ أسعد رستم وإيليا أبو ماضى ونعمة الحاج . وفى طليعة زجّاليها النابغين مِلْحِم الحاوى . وفى مقدِّمة شعرائها الشباب سعيد جبرين ويوسف الخال . وعلى رأس كتابها الأدباء الشيوخ ديب نعيم ليون . ومن مشاهير أدبائها وكتّابها المخضرمين فكتوريا طنوس وجورج دبس وعيسى خليل صباغ وعبد الله حنّا نَصْر وحبيب عيسى ونجلا أبو اللّمع معلوف وعبد الله برّى وفيليب العقل وفريد غصن . ومن

أدباتها الشباب إبراهيم داغر وعبد الله صالح وعبّاس نصرْ الله وليندا كرم . ولئن مَضَى جيلٌ بجبران ورشيد أيّوب وجميل بطرس الحلوه ونسيب عريضة ورزق حداد وندرة حداد وأضرابهم ، فما يزال مِشْعَلُ الأدبِ الجديدِ الحيِّ وهّاجًا رائعًا فى أرض كولومبوس .

شعر الذكاء والفكاهة في المهجر الأمريكي

كان صاحبُ الرِّسالةِ الاسلاميةِ يقول إنَّ الأرواحَ جنودٌ مجنَّدَةٌ ، وهى حقيقةٌ أكثرُ ما تكون انطباقاً فى الذِّهنيّاتِ والوجدانيّاتِ على تَذَوُّق الشعرِ .

قرأنا أخيراً لأديبٍ أُرْدُنِيٍّ نابهٍ هذا القول[1] : « ليس الشعرُ يا أخى موضوعاً يمكنني الحديثُ عنه بالسُّهولة التى نتحدَّثُ بها عن المواضيع الأُخرى ، فهو كالجوع والعطش نُحِسُّ آثارَه ولا نُحسُّه . هو ليس ذاتاً وإنما هو معنى من تلك المعانى التى يَعجز العقلُ عن إدراك كُنهها أو سبر أغوارها . كثيراً ما تساءلتُ : ما هو الشعر ؟ فيجيبنى صوتٌ خفيٌّ بعيدٌ : ما الحياةُ ؟ ما كُنهها ؟ مِمَّ تتألفُ ؟ فيستولى علىَّ سُهومٌ ويأسٌ وَحَيْرَةٌ ! ألعلَّ الشِّعرَ كلامٌ ؟ ألعلَّه معنىً ؟ ألعلَّه كلامٌ وراء الكلام ، أو معنًى وراء المعنى ؟ لا أعلمُ ! وإنّما أعلمُ أنَّ الشعرَ شىءٌ جميلٌ فيه خفقاتٌ وارتعاشاتٌ تنتقلُ من السُّطور

(١) جريدة (الحوادث) الصادرة عن عمان بتاريخ الثلاثين من يونية سنة ١٩٥٢ ، مقال للأديب ماور عويس بعنوان « أمن السماء أم من الأرض ؟ »

إلى الصُّـــدور ، وتستولى على القارئ أو السَّامع ، فَتَهزُّه وتفتحُ أمامَ قلبهِ وخيالِه أبواباً كانت من قبلُ مُوصَدَةً على دُنيا من الجمالِ والْحُبِّ والخير . ليس للشعر مقاييسُ ومَوازينُ وقوانينُ إلّا إذا استطعنا أن نضعَ للحياة مقاييسَ وموازينَ وقوانينَ ، وعندئذ تُصبحُ الحياةُ أرقامًا وأشكالاً هندسيّةً تبعث السَّأمَ فى النفوسِ وتُثيرُ الحزنَ والـكآبةَ فى القلوب . يقولون إنّ الشعر هو عِرْقُ الرُّوح ، ومن الأَروحِ أرواحٌ لا أرواحَ لها ، فيجئُ شعرُها مصنوعًا غيرَ مطبوع ، مُرَكّزًا غير مترنّح صاحياً غير ثمل . وهذا الشعرُ المصنوعُ المركّزُ الغيرُالمترنّح ، الصاحى الغيرُ الثَّمِلِ ، هو شِعْرُ العقلِ ، وهو فى اعتقادِكَ وفى اعتقادِى شئٌ غيرُ الشعر » !

وهذا كلامٌ خيالىٌّ جميلٌ ، هو شعرٌ منثورٌ ، ولـكنّه يُجانبُ الحقيقةَ ، فقد لا يكون النظمُ المهلهلُ المترنحُ شعراً بأىِّ حالٍ ، حينما يكون النّظمُ المركّزُ زاخراً بعوالمَ من الفكرِ والخيالِ والعاطفةِ منتظمةٍ كانتظام الذّرّة وانسجام جُزَيئاتِها . وَحَصْرُ ناقدِنا الفاضلِ تعريفَ الشّعرِ فيما ذهبَ إليه هو تضييقٌ فوقَ كلّ تضييق ، كما أنّه فى الوقت ذاتِه إعلانٌ عن إفلاس الشعر العربىّ المعاصر ، لو صحّ ما ذهبَ إليه وعمّ الأَخْذُ به . ولـكنْ لحسن الحظّ ليس هذا هو الواقعُ ، و إنّه ليمثّل الرأىَ

اليسارىّ المتطرّفَ الدّاعى إلى التهالكِ على شعرِ التّرويح والتفكهِ والعاطفةِ المجرّدة والتّهويلِ والفَنْطَزَةِ *Fantasy* ، كما أنَّ الرّأىَ اليّمينىَّ المتطرّفَ يُبَشِّرُ بالاقتصار على الشّعر الواقعىّ أو الحِكْمِىّ أو الوَصْفِىّ المجرّد ، فى حينِ أنَّ مَذهبَ الشُّمول وهو مَذهبُ الوسَط الذى ندينُ بهِ ونُطَبِّقُه على أنفسِنا قبلَ غيرِنا ، وهو مَذهبُ الإيمانِ بترقُوقِ الشّعرِ فى كلّ شىء إذا وُجِدَ مَنْ يقطِفهُ وَيُؤَلِّفَهُ ، وهو مَذْهَبٌ لايَحُدُّ مِنْ ضُروبِ الشّعرِ موضوعًا ولا أسلوبًا ما دامت تنبِضُ بالشُّعور ، ويَزِيدُها قيمةً أن تَستوعبَ الفلسفةَ والتأمُّلَ لأنهما بمنزلة التجاوب العميق مع الحياة . والحياةُ جِدٌّ وَهَزْلٌ وليست هَزْلاً وَمَرَحًا فحسبُ ، والفِكْرُ لونٌ من ألوانِ الشّعور ، أو أنّه ينضُج عنه ، ومهما يكنْ من شىء فالعِبرةُ فى تكييفِ الشّعرِ ثم فى تقديره بالتناولِ الفنّى ، وما فى هذا التعبير أىُّ لغز أو إبهام — فالتناولُ الفنىُّ قد يكون فى صورة السَّرْدِ أو القصة أو الحلْمِ الخ . ولكنّه ليس على أىّ حال نظماً خَبَرِيًّا مجرّداً .

وذلك الناقدُ الأديبُ الذى أشرنا إليه فى صدر هذا الحديث اكتفى بخُطْبةٍ شعرية منبريةٍ شطّ فيها وعجزَ عجزاً تاماً عن تطبيق حكمٍ واحدٍ من أحكامها بَلْهَ جميعَ أحكامها ، بل إنّه جارى أهلَ التطرُّف والدّعةِ الذّهنيّة الذين يرقصون طرباً للشابّ الظريف وكشاجم والبحترىّ

وأمثالِهم ، ويحتقرون أبا تمام وابنَ الرومى والمتنبى وأضرابَهم ، فلم يرَ
فى مجموعةٍ شعرية تناولتْ تسعاً وستين قصيدةً ومقطوعةً بينها طائفةٌ غيرُ
يسيرة من مُوحياتِ المهجر ، سوى مَطبخٍ « تدخلُه جائعاً وتخرجُ منه
جائعاً . . . هو مطبخٌ غيرُ كريمٍ ، غيرُ موفَّقٍ » ولـكنْ من علامات
العافيةِ المتجدِّدةِ فى الأدبِ العربىّ الحديث أن يرى أعلامٌ من الأدباء
والشعراء فى العالم العربىّ غيرَ هذا الرأى ، كما تجلَّى فى (المقتطفَ)
و (الـكتاب) (والثقافة) بمصر ، وفى (الأديب) و (العرفان) بلبنان ،
وفى (المنهل) بالبلاد السعودية ، وفى (رسالة المغرب) بالمغرب الأقصى ،
وفى (السائح) و (الهدى) و (الإصلاح) فى الولايات المتحدة الأمريكية ،
بَلْهَ ما كتبه المستشرقون الفطاحلُ وعلى رأسهم بروكلمان فى مجلة
(الأدب الإسلامى (*Islamic Literature*) فى باكستان وجُستاف
فون جرينباوم فى مجلة *The Bulletin* بانجلترا ، فضلاً عن أكاديميـة
الشعراء الأمريكيين وجمعية الشعر بأمريكا وقد رأوْا أمامَهم ألواناً من
الشعر الذى اقترنت فى كثير منه العاطفةُ بالتأمُّل والفلسفة والأخيلة
الجريئة . وما نقول هذا إلاَّ دفاعاً عن الشعر ذاته فحسب ، عن حقوقه
وعن كرامته ، من الشعر الذى يَنهضُ بالناس ولا يَنحطُّ بهم ومعهم ،
ونـكتفى منه بمثَلٍ واحد هو رثاء نسيب عريضَة الذى هلَّلَ له إيليا

أبو ماضي وكبَّر يوم إلقائه بنزل تاورز فى بروكلن فى الخامس عشر من مايو سنة ١٩٤٦ ، ونافس (الهدى) بنشره فى جريدته (السمير) ، وإليك عبراتِ هذه المرثيةِ العاطفيةِ الفلسفيةِ ، وهى فى ذاتها ردٌّ على مَزاعم ناقدنا الأديب :

ما كان عُمْرُكَ موهوباً لإنسان ... ولا لإحساسِ هذا العالم الفانى
ولا لأرضٍ وأوطانٍ حَننْتَ لهَا ... فالعبقريةُ لم تُخْلَقْ لأوطانِ
والشاعريةُ لم تُقْصَرْ مَنازلُها ... على الحياةِ ، ولو من رَسْم فنّانِ
بل كان عُمْرُكَ آياتٍ هَتَفْتَ بها ... ولم تفَسَّرْ بانجيلٍ وقرآنِ
ولم تُكيَّفْ بأوصافٍ نُنمِّقُها ... ولم تُقَدَّر بمقياسٍ وميزانِ
ولم تُخَصَّصْ، فحتّىأنتَ كُنتَبها ... فى نَشْوَةٍ ، بين مَشْدُوهٍ وحيرانِ
مِلْءُ الزَّمانِ تُناجينا وتُسْعِدُنا ... وتَحملُ النُّورَ ميراثاً لأزمانِ
وتَبعثُ الوَحْىَ فينا ، وهو يَنقلنا ... إلى عوالمَ من حُسْنٍ وَإحْسانِ
تُشَامُ بالرُّوحِ أطيافاً وأخيلةً ... عُلويّةً ، وجِناناً دونَ جنّانِ
أكنَّ من صُنْعِكَ الفنّانِ أم نَشأَتْ ... من مُعجزاتٍ سَمَتْ عن خَلْقِ إنسانِ؟
لعلَّ فِي مُقْبلِ الأَجْيَالِ عارفَها ... إنْ فَاتَ تعريفَها رُوحى و وجدانى!

***

يا شاعرَ الهَمَسَاتِ السّامياتِ بنا المُبْدِعَاتِ لنا قُدْسِيَّ ألحانِ
كأنّها صلواتٌ لا حُـدُودَ لها يَغْنَى الوُجُودُ بها مِنْ قلبِكَ الحانِي
جَمُّ التَّوَاضُعِ ، جَمُّ العِلْمِ ، يُسْعِدُه ألّا يُمَـيَّزَ فى مَدْحٍ وشُـكرانِ
وليس يَبْخَسُ إلاَّ نفسَه أدَباً كأنَّ أخلاقَه أخـلاقُ دَيَّانِ
وليس يَعْرِفُ غيرَ الحبِّ مَنْقَبَةً ويَحْسَبُ الزَّهْوَ مِنْ أوزار شيطانِ
يَحْنُو على الشَّعْبِ فى البَلْوَى ويُسْعِفُه ويَستثيرُ شُعورَ الغافلِ الوانى
وَيرْفُضُ الضَّيْمَ ، حتى لو أتَى مَلَكٌ بهِ ، وكان رسالاتٍ لأديانِ
يا حاملَ العِبْءِ فى إيقاظِ أُمَّتِهِ حُمِّلْتَ عِبْئَيْنِ بل رُزْءَيْنِ فى آنِ
ما بَزَّ آثارَكَ الغرّاءَ مُبْتَدِعٌ ولا بَنَى فوقَ ما أعْلَيْتَه بانى !

***

تركْتُ (مصرَ) وقلبى ذائبٌ حَرَقاً وجِئْتُ أُطفِئُ لوعاتى ونيرانى
وكنتُ جانَبْتُ أطيافَ الربيع بها وقُلتُ حَسْبى بكم جَنّاتُ (لُبنانِ)
ومُذ وَفَدْتُ رأيتُ الرَّبْعَ مكتئباً كأنَّ أحزانَه مِنْ لونِ أحزانى
فلا الجمـالُ قريرٌ فى مَبَاهِجِهِ ولا النَّسِيبُ على رَوْضٍ وأفنانِ
كأنَّ (آذارَ) عاداه وباعدَهُ وما رأتْ عينُه أفراحَ (نيسانِ)
ما للبشاشةِ قد ماتَتْ بنَضْرَتِهِ ولِلأزاهر ما هَشَّتْ لبُستانى ؟

وللجداولِ قد غُصَّتْ بحسرتِنا ... كأنها لم تكنْ راحاً لريحانِ ؟
وللنسيمِ قتيلاً بعدَ عاصفةٍ ... وللسحائبِ فى رَعْدٍ وإدجانِ ؟
ولِلطيورِ التى كانت مُغرِّدةً ... تُنقِّرُ العُشْبَ فى يأسٍ وإذعانِ ؟
وللنواطحِ لم يَشْمَخْنَ فِي نَظرى ... وللروائعِ قد خَيَّبْنَ حُسبانى ؟
شاهتْ بعينى جميعاً بعدما حُرِمَتْ ... لِقاءَ مَنْ عِشْتُ أهواه ويهوانى !

* * *

جَعَلْتَ قلبكَ قُرباناً وتَقْدِمَةً ... للنّاسِ ، والآنَ ما حُبّى وقُربانى ؟
وما رثاءَ مَنْ آثارُهُ عَمَمٌ ... وكلُّ بيتٍ له كنزٌ لديوان ؟
أُغْنِيتَ عن كلِّ صِيتٍ مِنْ عوالمنا ... وعن بُكاءٍ وتَمْجيدٍ وعرفانِ
وعِشْتَ فينا غريباً ، فَلْتَعُدْ أَلِقاً ... لموطنِ الأصلِ أو للموطنِ الثانى
فأنتَ وحدكَ تَدرى الآنَ ما عجزَتْ ... عنه مواكبُ أذهانٍ وأذهانِ
وحسبُنا ذكرياتٌ منكَ عاطرةٌ ... ومُوحياتٌ بأنغامٍ وألوانِ
وخالداتٌ من الإيمانِ ناصعةٌ ... تَهْدِى العَزاءَ وتُسْمِى كلَّ إيمانِ

* * *

مَنْ ماتَ موتَ شهيدٍ لم يَمُتْ أبداً ... وقد تُبَدَّلُ أبدانٌ بأبدانِ

ومَنْ تـكنْ نَفسُه شِعْراً وفلسفةً ... وَبسْمَـةً من أغاريدٍ وأوزانِ
يَأْبى الإسارَ وإنْ وَافَى مجامَلَةً ... من الشموسِ،ويَأْبى العالَمَ الفانى!

فى هذه القصيدة الـكلاسيكيةِ الأسلوب — التى نسوقُها دفاعاً عن حرّية الشعر — يتلاقى الوفاء ، والحنينُ إلى الراحل ، والرثاء الصادقُ ، بالتأمُّل الفلسفىّ وبنزوعِ المغترب إلى وطنه الأول ، وبالتصوُّف الحزين فى الطبيعة . وهذه الآفاقُ الشعريةُ وسواها يجب أن تصَانَ لـكلِّ شاعرٍ لا أن تَتعرّضَ للتهجُّمِ والتجنِّى عليها تحتَ أىِّ ستارٍ .

إنّ آفاقَ الشّعر فى رأينا لا حَدَّ لها ، وهذا البُحترىُّ ذاتُه — معبودُ الجماهير التى تَطلب الشعرَ المُيسَّرَ — جاءنا فى ديوان (الحماسة) الذى احتَوى مختاراتِه من أشعار العرب بما أدخله فى أربعة وسبعين ومائةٍ من الأبوابِ الواسعةِ الآفاقِ فِـكراً وعاطفةً وخيالاً ، لا المتعدِّدَةِ الأغراضِ فحسبُ . ولقد قِيلَ : اختيارُ المرء قطعةٌ من عقلِه ، والنظرُ فى (حماسة البحترىّ) يدلُّنا على أنَّ تقصيرَه فى نواحٍ متعدّدةٍ من المجال الشعرىّ لم يَحُلْ دونَ جمعِه ما فاتتْه نظائرُهُ ، بل لعلّه شجَّعه على ذلك الجمع من آثار نحو ستمائةِ شاعرٍ أكثرُهم من الجاهليّينَ والمخضرمينَ .

نَنتقلُ بعد هذا التحليل الذى لا بدَّ منه إلى كلمةٍ عن شعرِ الذكاء والفـكاهة فى المهجر باعتباره أحدَ الآفاق الشعريةِ ، فنقولُ إنَّ شعر الذكاء

والفكاهة *Poetry of Wit and Humor* قد تركّز أغلبهُ فى المهجر الأمريكىّ فى شاعرٍ واحدٍ ، بعكس الحال فى مصر مثلاً التى اشتهر فيها جملةُ شعراء فى آنٍ واحد بهذا اللون من الشعر ، نذكر من بينهم : محمد الهياوى وحسين شفيق المصرى . وهذا الشاعرُ الأصيلُ الملهَمُ هو أسعد رستم شيخُ شعراء أمريكا ، وعلى الرغم من علوِّ سنّه فقد أتحفَ العالَمَ العربىّ ولا يزال بروائعَ من فنّه العبقرىّ الذى يدلُّ على ذكاء خارق . و بعضُ هذا الشعر تُسانِدُه العاطفةُ فيرتفع بمستواه إذْ يخاطب به العقلين الواعى والباطن ، والبعضُ الآخر لا يعدو أدبَ التّسلية الذى لا نضعُه فى مُستوى الأول ، ومن القبيل الأول شعرهُ الانسانىُّ المعروفُ ، وقد أُذيعَ أغلبُه من محطة (صوت أمريكا) ، ومن القبيل الثانى قصيدته « أنا وأولادى » ولا نعرف شاعراً يُضارعُه فى ألمعيّته المَرِحَةِ هنا رغم أقلاده غير عبد المسيح حدّاد . قال أسعد رستم :

لقد زحَفتْ على بيتى جُيوشٌ   مِنَ الفِئرانِ تَنْهَبُهُ انتهابَا
فعاشتْ فيه أيّاماً كِثاراً   عَلَى ما لذَّ فيه لها وطابَا
فجئتُ بِقطَّةٍ حسناء يَوْماً   لِتُفْدِمَها الفُتُوّةَ والشَّبابَا
ولكنْ ما سددتُ علىَّ باباً   بها حتى فتحتُ علىَّ بابَا
فانّ القِطَّةَ الحُسْنَا استقامتْ   جَزاها اللهُ فى الأخرى الثوابَا !

ويومٍ فيـــه خادمتي أتَتْني | تقولُ: ألا أنظرِ العجَبَ العُجابَا !
فَقِطَّتُنا لقـــد وَلَدَتْ، فقَدِّمْ | لحضرتِها المآكلَ والشَّرابَا !
وإنّي حولَها شــاهدتُ ما قَدْ | سأَلتُ اللهَ أن يَهَبَ الصِّحَابَا
فكان هنـاكَ أجْرِيَةٌ كِثارٌ | لهـا ما اسْطَعْتُ عَدًّا أو حِسَابَا
كَأَنَّ لِسانَ حالِ الكُلِّ منهـا | — وقد نَظَرَتْ إليَّ — يقول: بابا !
لذاكَ هَرَبْتُ من بيتى ، أُنادى | كَفى قلبى بأولادى عـــذابَا !

ويُعْتَبَرُ شعرُ التهكُّمِ العاطفي *Poetry of Emotional Satire* ذا صلةٍ بشعرِ الذكاء، ولكنَّ العاطفةَ والمثاليةَ العاليةَ إذا حازهما تؤلِّفان جَناحَيْن له وتسموَانِ به. ومن هذا الطراز قصيدة « الوُصولية *Opportunism* » التى نقتطفها من ديوان (الإنسان الجديد) وهى للشاعر المهجريّ ذاتهِ الذى رَثَى صديقَه الشاعر نَسيب عريضة ، وقد حَزَّتْ فى فُؤادِهِ الفجيعةُ إثرَ وفُودِهِ على أمريكا إذ كان متشوِّقاً إلى لقائهِ فإذا به يُفاجَأُ بنعيِه . ويُلاحَظُ أنّ تلك المرثيةَ هى من الطراز الكلاسيكى فى أسلوبها ، حينما هذه القصيدةَ التهكمية الرمزية هى من الشعر المُرْسَل الحرِّ أى أن أُسلوبَها مَزيجٌ من النظم المرسَل *Blank Verse* ومن النظم الحر *Free Verse* ، وقد سَخِطَ فيها على الانتهازية المتفشية التى تجنى على الأحرار وتعبُد الطاغوتَ ثم تتلوّنُ بتلون الحكوماتِ والظروفِ لأنها فاجرةٌ لا تلتمسُ

إلا الغنمَ المادىَّ دون حياء ولها كلَّ يومٍ سادةٌ جُدَدٌ ، وأما ضحاياها فهم دائماً الشرفاء الأحرار :

لا تَخْجَلى يا فاجرهْ ! * لا تَخْجَلى ! * لا تَخْجَلى ! * وتمهَّلى ! * فستَمْسَخِينَ جُهُودَنا * وستجعلين يقيننا * كُفْراً ويَنْعَم عندها * أهلوكِ بالمستقبل * لا تَخْجَلى ! * لا تَخْجَلى ! * كم من مَراراتٍ شَربناها كشربِ الحَنْظَلِ * وذووكِ حَرْبٌ لا تلينُ على الشّريفِ الأمْثَـلِ * لا تخجلى ! * لا تخجلى ! * ساوَى الحصِيفُ لدىَّ ذا العقلِ البهيمْ * كلٌّ غريمْ * كلٌّ يُسَبِّحُ حامداً * ما يستطيبُ به الجدَا[1] * كيف اغتدَى * ويُعاقِبُ الأحرارْ * عَمْداً ، وإلا كالصِّغارْ * إنْ عَذَّبوا طَيْرًا أَبَى فتمرَّدَا * لا تخجلى ! * لا تخجـــلى ! * هذى جِراحاتٌ تَئِنْ * تبكى على مَرِّ الزَّمَنْ * وتَظَلُّ شاهدَ بَغيِكِ * فى أمْسِكِ * بل بين يومِكِ والغـــدِ * يا عزةً للمُعْتَدِى ! * لـكنْ هَلُمّى وازْعُمى أنَّ الضحيةَ أنتِ لا * مَنْ ذُوِّقُوا منكِ الأذَى * وتَبَخْتَرِى ، وتخطَّرى * رمزَ البُطولةِ واعْتَلِى * ودَعى ضحاياكِ على الحالِيْنِ فى بؤسٍ ويأسٍ وامرحى ! * هنا افرحى ، ولْتَضْحكى ! فالحظُّ

---

(١) الجدا : النفع والعطاء .

خُصِّ بمثلِكِ * والغَبْنُ حظُّ النابهين * مِنْ كلِّ حُرٍّ لا يلين *

لا تخجلى ! * لا تخجلى !

وقد ذاعتْ هذه القصيدةُ بين أحرار العرب فى أمريكا . ويَعنينا منها فنياً فى هذا المجال الأدبىّ النقدىّ اختلافُ طرازها وموضوعها عن طراز القصيدة الأولى وموضوعها ، وإن كانت العاطفةُ القويةُ تطير بكلتَيْهما . بيد أن ذلك الناقد الأديبَ لم يَرَ فى مثل هذا الشعر ما يُشْبع نَهَمَهُ الروحىّ أو لعله يؤثر شعر التسلية ، ولذلك نرى من الملائم أن نختم هذا الحديث كما بدأناه بالإشارة إلى تلك الكلمة الروحانية التى يؤمِّن عليها علمُ النفس : الأرواحُ جنودٌ مجندة ، ما تعارف منها ائتلفَ ، وما تنافر اختلف !

لويس هاريس

LOUIS HARRIS

لم يُنْجِبْ الأُستاذان الرّسّامان ماكس وِبَر *Max Weber* و *Miller* مَنْ هو أَجْدَرُ بالانتساب إلى نُبُوغهما وَمَنْ هو أَقْدَرُ من تمثيل طِرازٍ جديدٍ رزينٍ للفنّ الأمريكيّ مِن الرسّام المتصوِّف لويس هارّس الذي عُرِضَتْ في نيويورك أخيراً طائفةٌ من لوحاتِهِ الجميلة .

ومع شُهْرَةِ هذا الفَنَّانِ في أمريكا فقد تَحتاجُ البلادُ العربيةُ إلى التّعريف بهِ ، كما تَحتاج أمريكا إلى التعريفِ بالأخوين وانلي أو بمحمود سعيد مثلاً من الفنّانين الشرقيين الذين عرَفتهم فرنسا خاصةً واعتزّتْ مَتاحفُ مصر بلوحاتِهم ودارُ الأوبرا الملكية في القاهرة بنقوشهم ورسومهم لمناظرها وستائرها .

ونحن فيما نَعرضُهُ مِن الفَنّ الأمريكي المُعاصِرِ نَجتهدُ في الاتّصالِ المباشر بالفنانينَ أنفسِهم واستجلاء شخصيّاتهم ، ثم نُعنى بدراسةِ آثارهم دراسةً مستقلةً أصيلةً و إذاعتِها في أحاديثنا .

يُناهِزُ الآنَ لِويس هارّس الثانيةَ والأربعين ، فقد وُلد في مدينة سانت لويس *St. Louis* بولاية ميزّوري *Missouri* سنة ١٩٠٨ ، وأمضى

كلَّ حياته العملية فى العمل الفنى أو تدريس الرسم . ومن ينظر إلى لويس هارِّس الهادئ الوديع يرى الفنانَ المتصوِّفَ القريرَ ماثلاً أمامه كياناً وصَوْتاً وتعبيراً ، ولو لم يكن رسّاماً لكان شاعراً من طراز بليك *Blake* مثلاً ، وإنْ كان فى تصوُّفِهِ الفنّى أقربَ إلى رُوحِ الميثولوجيا الإغريقية .

ومِنْ تَأَمُّلِنا النّقدىِّ فى آثارِ هذا النابغةِ يتَجَلّى لنا أنَّ لفنّهِ مَظْهَرَيْنِ مختلفَيْن : —

(١) أوَّلُهُمَا : وَحْىُ زيارتهِ الرِّيفَ حيث يَسْتَوْعِبُ جمالهَ ، ويَستحمُّ بأضوائهِ ، ويَثْمَلُ بعُطوره ، وحيث يَرْسِمُ مُحَلِّياً مثلَ لوحتهِ البديعة (منظر عام مع الأشجار *Landscape With Trees*) التى تَبْدُو فيها الطَّبيعةُ فَرِحَةً زاهيةً رَاقصة فى خِفّةٍ تُشْعِرُ بها طريقتُه فيما يَصحُّ أن نَنْعَتَهُ بتنقيطِ الأصباغ » *Pointalism* ، ومثلِ لوحتهِ الفريدةِ (الصخرة المضطجعة *Reclining Rock*) التى تَبدو فيها صخرة ممتدةٌ وَسْطَ الأَعشابِ والأزهارِ كأنها غانية متكئة على ذلك البِساط السُّندسىِّ . وفى هذه اللّوحةِ أيضاً تبدو طريقةُ « التنقيط » التى يُتقنها فى نفض الأصباغ على لوحتهِ زاهيةً فرِحةً ، نضرةً ، معبِّرةً عن فرحةِ الطبيعة ذاتِها وعن مَرَحِها وتَـكادُ تَشعرُ بهفهفةِ نسيمها و بتموُّجِ أضوائِها وباشتباكِ

أصباغِها اشتباكَ الحياةِ والحركةِ ، ومع ذلك تبدو فى اللَّوْحَةِ أيضاً قِطَعٌ متساندةٌ « لا تنقيط » فيها كأنّها مَناطقُ السُّكون والعِبادةِ الهادئةِ .

(٢) وأمّا المَظْهَرُ الثانى لفنِّه فمستَمَدٌّ من أحلامهِ حينما يَنطوى على نفسهِ . مِثَالُ ذلك لوحتُه المسمّاةُ (فتاة — *Girl*) التى يُريكَ فيها جمالَ التأمُّل والسكينةِ والطُّمأنينةِ التامّة ، وهو ما يتجلّى فى سُكونِ ذلك القوامِ الجميلِ الرّشيقِ ومن خَلفِهِ الأشجارُ الرّشيقةُ المستطيلةُ . أمّا الألوان المستعملةُ فغيرُ جهيرةٍ ، ومع ذلك يبدو ذلك الجسمُ العارى كأنَّ وراءه أضواء تتسلّلَ إليه مِنْ خلفِ الأشجار فتَصْدِمُهُ . وكُلّما ازداد المرء تأمُّلاً فى لوحةٍ كهذه ازدادَ استيحاؤه لها ، وزادتْ معانيها فى نَظَرِهِ ، أىْ أنها من ذلك الطراز الذى يَفتِنُك تدريجيًا ويَنمو أَلَقُهُ الفنىُّ بطول الصُّحْبةِ حتى يَستحوذَ فى النهايةِ على إعجابكَ الكامل . ولا ريبَ أنّ هذه اللَّوحةَ مِن أروع لوحاتِ هارِّس ، وهى صوةٌ ناطقةٌ للتصوُّف الفنّىِّ المجرّد عن الشهوةِ الحسِّيةِ ، وهى مرآةُ السَّلام الهنىء الخالد الذى نحنُّ إليهِ ونَنشدُه . ومثالٌ آخرَ لهذا القسمِ مِنْ صُوَرِهِ اللوحةُ المسمّاةُ (أمٌّ وطفلٌ — *Mother & Child*) ، حيث نَرَى الطفلَ القانعَ الوديعَ فى ذراعىْ أمّه المطمئنّةِ ، وحيث نرى السلامَ والرِّضَى مرفرفيْن عليهما ومبتسميْن للناظر المتأمّل .

ولا بُدَّ لنا قبلَ ختام هذا الحديثِ من الإشارةِ إلى ثلاثةِ أمورٍ في عمل لويس هارّس :

أولُها — طريقتُه في استعمال الأصباغ اجمالاً .

وثانيتُها — آثارهُ القديمة .

وثالثتُها — آثارهُ الممثِّلة ذِروةَ فنِّه .

فأمّا عن طريقته في استعمال الأصباغ إجمالًا فَقِوامُها استعمالُ طبقاتٍ دقيقةٍ منها بعضُها فوقَ بعضٍ على مَدًى طويلٍ بحيث إنَّ بعضَ لوحاتِه قد استغرقَ عملُها نحو خمسِ سنوات .

وأمّا عن آثارِه القديمةِ فواضحٌ منها أنه كان مشغولًا أكثرَ بالتفاصيل سواء في التشريح أو في الأصباغ والأضواء والظلال ، ومن أمثلتِها لوحتُه (صورةُ فتاةٍ — *Portrait of a Girl*) إذ تُرَى جالسةً في كرسيِّها مستغرقةً في التأمل ، ولوحته (الكنيسةُ الصغيرةُ — *The Little Church*) التي تبدو عليها كذلك الوداعةُ والسكينةُ ، وقد رسمَها منذ ثماني عشرة سنةً .

وأمّا عن آثارِه الممثِّلةِ ذُرْوَةَ فنِّه حتى الآن فهي أحْدَثُ آثارِه ، ومِنْ أبرزِها لوحته الكبيرةُ (الصَّبِيَّتان *The Maidens*) التي يتجلّى فيها أيضاً إحساسُه الناضجُ نحو الأنوثة ، وهو احساسٌ أفلاطوني يَمُتُّ

بصلةٍ إلى الروح الـكلاسيكى اليونانى . والأصباغُ التى تتَجَلّى فى هذيْن الجسمين العاريْين وفيما حولهما بجلستهما هى أصباغٌ حُلْوَةٌ رقيقةٌ تَنمُّ عن الثمار والأزهار — وهى ثروةٌ متحفِّظةٌ لا تَتدَفَّقُ على الناظر إليها فتغمره ، ومثالُها لوحتُه (طفلٌ بين بقَرٍ Child Amongst Cows) حيث نرى طفلًا عارياً جالساً فى ظل شجرةٍ عريضةٍ وحوله بعضُ البَقَر ، وقد بدا لونٌ مِن التعاطُفِ والتجاوبِ والصداقة ما بين البقر والطفلِ ، وحتى الشجرةُ ذاتُهاَ تبدو كأنها على ودادٍ له وللبقر ! أمّا الوقتُ فوقتُ الغَسَقِ وقد هدأ وعكسَ عليها أصباغَه الهادئة ، وخلقَ منهـا صورةً دينيةً فى روحها المتقشّفة .

* * *

ومهما يكن مِنْ شَىء فعندنا أنّ أكثرَ أعمال لويس هارّس جاذبيةً ما استلهمَه فى حضنِ الطبيعةِ وقد نثرتْ عليه ألوانَها البَهجَةَ الزّاهيةَ ، وكأنّ التأمّلَ فيها مُغَازَلَةٌ لا يُشْبَعُ منها ، وقَرِينٌ لِسرِيناد تشايكفسكى الوترىّ (Serenade in C Major Tschaikowsky) الذى لا تُمَلُّ حلاوةُ تـكرارِه . وأمّا فنانتا ذاته فيلوح أنه صار أكثرَ شَغفاً بأحلامه الرمزيّة المتصوِّفة .

الموسيقى الأمريكية

العهـد الأول

إذا تركنا موسيقى الهنود والزُّنوج الشعبية جانباً ، فإنَّ أُولَى ما تواجهنا فى العهد الأول للاستعمار الأبيض لأمريكا هى الموسيقى الدينيةُ ، بل على الأصح المزاميرُ ثم التراتيلُ أيضاً ؛ مجرَّدةً عن صُحبةِ العَزْف .

وقبلَ وُفودِ « الُحجَّاج » *Pilgrims* إلى بليموث لا ريبَ أنَّ مستعمرين آخرين ، سواء أكانوا مؤقتين كالهيوجينيتيين على ساحل كارولينا ، أو دائمين كمزارعى فرجينيا ، كانت لهم أهازيجُهم (كيفما كانت ألوانُها) ولـكنها لم تُدوَّنْ تاريخياً ولا فنّياً ، فلا يمكنُ الرُّجوعُ إليها والاستشهادُ بها ، بعكس أولئك « الُحجَّاج » الذين وَفَدُوا على نيو انجلاند فى نهاية العِقْدِ الثانى من القرن السابع عشر ، فثمَّةَ مستنداتٌ ووثائق من عصرهم تدل على ألحانهم وطرائقِ غِنائِهم . وهكذا بالوسع أن نتتبَّعَ تطوُّرَ الموسيقى الأمريكية منذ نشأتها بين هؤلاء المستعمرين اعتماداً على وُجود هذه المستنداتِ الأصيلة .

وَفَدَ أولئك الُحجَّاجُ من هولاندا — أولَ ما وفدوا — على الباخرة « زهرة أيَّار *Mayflower* » ومعهم (كتابُ المزامير) من تأليف

هنرى إينزورث *Henry Ainsworth* المعدودُ موسيقياً فى عصره أفضلَ من أىِّ كتابِ انجليزىٍ من طرازه . كان أولئك الحجاجُ مشغوفين بالألحان ، وبها كما بدموعهم ودَّعوا وطنَهم الأول ، فى أصواتٍ حنونةٍ عذبةٍ ، وهكذا وصف حالَهم الرَّاويةُ الأديبُ « إدوارد وِنزلو : *Edward Winslow* »

كذلك صَنعت جماعة « الطُّهر يين » *Puritans* حينما نزلوا بمستعمرتهم فى خليج ماساشوستس جالبين معهم كتابَ المزامير الذى ألَّفه البروتستنتيون المنفيون فى جينيف ، وقد حَوَى من الشعر الدينىِّ الجميل ما حَوَى ، مثل هذه الأبيات :

كلُّ مَنْ فَوْقَ هذه الأرض يَشْدُو ... بلسانٍ حُــلْوٍ لِرَبٍّ كريمْ
وإليــه تُزَفُّ أَبْهَى جُهُودٍ ... فى نعيمٍ ، وفى سُرورٍ عميمْ
فهلمُّوا إليــه بالذكر والشــكـ ... ـرِ ، وذُوقوا ألوانَ هذا النَّعيمْ !

ولــكنَّ التعليمَ الراجحَ بين « الطُّهر يين » فى نيو إنجلاند كان مع ذلك شديدَ المحافظة يدعو إلى الاقتصار على ترنيم مقتطفات من الــكتاب المقدَّس . ثم تطوَّر التفكيرُ فإذا بطائفةٍ من الشعراء يُرْضَى عن جُهودها فى ترجمةٍ نظميةٍ للمزامير ، لم تَخْلُ من الجمالِ وإن اتَّسَمَتْ بالخشونة ، وكانت منظوماتُهم هذه تُرَتَّل ، ولــكنَّ موسيقاها لم تدوَّنْ لنا ، ويبلغ

عددها نحو خمسين لحناً . ولـكنْ حينما اقْتُرِح أن يصحبَ الترنيمَ عَزْفُ الموسيقى لقى الاقتراحُ معارضةً شديدةً ، بل إنّ مجرد تهذيب الترانيم قوبل بالاعتراض ولـكنَّ الإصلاحَ تغلَّبَ فى النهاية ، وفى نهاية العِقدِ الثانى من القرن الثامن عشر أُسِّسَتْ أُولَى المدارس لتعليم الغناء بمدينة بوسطن . ولا بدَّ فى هذه المناسبة من التنويه بالشاعر الدِّينى واطْس وبـكتابه (ترانيم ومزامير) *Watto's Hymns and Psalms* ، وبالموسيقار المؤلف تانسور *Tans'ur* الذى برع فى صَوْغ المزامير ، ومن أشهر ماحبَّبَه إلى الجماهير أنشودة *Crofts Hanover and St. Anne* ثم لحنُه الذائع فى زمنِه « مزمور سانت مارتن *St. Martin's* » .

لم يكن الأُرْغُنُ معروفاً فى المستعمرات الأمريكية فى القرن السابع عشر ، وحتى فى انجلترا لم يكن الأُرغن ليُوجَدَ إلاَّ فى الـكاتدرئيَّات وكنائِس الـكليات والأبرشيّات الـكبيرة . وأولُ أُرغن صُنع محلياً فى بوسطن كان من صُنْع إدوارد بلومفيلد الذى افتقدَه الفَنُّ فى شبابه سنة ١٧٤٦ م غيرَ متجاوز الثالثة والعشرين ولم يكمله قبل وفاته ، ولـكنه حاز إعجابَ مواطنيه . أمّا أولُ أُرغن عرفته المستعمرةُ فقد استورده توماس بَتِل *Thomas Battle* من أهالى مدينة بوسطن مبكراً فى سنة ١٧١١ ، ثم أوْصَى به بعدَ وفاتِه لـكنيسة *Brattle*

Square إلاّ فلكنيسة *King's Chapel* إذا ما رفضته الأولى ، وقد تحققَ افتراضُه فكانت كنيسةُ *King's Chapel* الظافرةُ به وأُولى الكنائس هنا التى زُوِّدَتْ بأرغنٍ بصفةٍ دائمةٍ . ولم يتكاثر عددُ هذه الآلات الموسيقية فى الكنائس إلاّ ببُطْء نظراً لارتفاع أثمانها ولقلة الفنّانين ولبعضِ الرُّوح الرَّجعية .

ووسطَ خشونةِ الاستعمارِ الأوّل لم تكن من المنتظرةِ العِنايةُ بالفنونِ الجميلة ، وكان الاهتمامُ بالغناء والرقص للتسلية لا وجودَ لها . وأولُ معلّمٍ للرقصِ أعلنَ عن نفسه كانَ صموئيل سيوال *Samuel Sewall* فى سنة ١٦٨٥ ، ولكنه لقى مقاومةً عنيفةً ، ولم يُسْمَحْ بمدارس الرقص إلاّ فى أوائل القرن الثامن عشر ، ثم تدرّجَ الاهتمام إلى الحفلات الموسيقية فى نهاية العقد الثالث من ذلك القرن ، وأخذتْ بوسطن خاصة تعطف على الحفلات التمثيلية وتشجعها ، ونشأت بها قاعةٌ خاصة بالموسيقى ، ونما هذا الشعورُ فى نيو إنجلند حينما اقتربَ حُدوثُ الثورة .

بدأنا هذا الحديثَ بالاشارة إلى التّرانيمِ والألحانِ الدينيّةِ ، ونختمهُ بالإشارة إلى ظاهرةٍ صَحَبَتْ القرنَ السابعَ عشرَ حينما كانت جميعُ الآلاتِ والأدواتِ الموسيقية قليلةً فى نيو إنجلند ، فقد كانت الدعوةُ

إلى العبادةِ فى الكنائس تُذاع بأصوات الطبول أو الأبواق بدلَ الأجراس ، بينما كان المعرّى يضجّ من وقع أصواتها فى اللاذقية قبل ذلك بستّة قرون ! ولكنها أخيراً وَجَدَتْ سبيلَها إلى مَعابدِ نيو إنجلند ، فابتهجَ بها المصلون أيّما ابتهاجٍ .

وهكذا غنمت نيو إنجلند ثم غنمت أمريكا عامةً الفتحَ الأولَ فى موسيقاها سواء فى حياتها المدنية أم فى حياتها الدينية واستعدّتْ للسير فى موكب النهضة الفنّية .

الشاعرة مارى بكستن

« MY PRIZED POSSESSION »

كُنّا نَقرأُ القصيدةَ الوجدانيةَ المعنونةَ « Suzy Q » للشاعرةِ الأمريكيّةِ الموهوبةِ مارى بَكْستن Mary T. Buxton التى تناجى فيها دُمْيتَها الأثيرةَ لديها قائلةً : —

How I wish that I could be.
Like this inanimate object, happy & free,
Who has no worries & no care
Where only life is to sit & stare.
She has'nt heartache nor any pain
And as time rolls on will never wane.

Yet she sits day after day
In the same position, come what may,
Wrapped in her blanket and sun-suit dress,
Never knowing trouble, or other distress.
Not a word does she speak, not a thin g does she see,
Yet she brings comfort and joy to me.

For when Iam lonley & when I am blue,
I can talk to her as I can to you.
She listens to my problems, troubles & all,
Whether they be big ones, medium or small.
She sees me gay & sees me sad,
But when I am happy, I know she's glad!

I abuse her at times, as in life you do
Mistreat unconsciously things meaning most to you,

Yet she'll never argue or fight back!
This makes me think & stop in my track
If the world was a doll house & human as its dolls,
Would there still be ugliness & wars with its scars?
Do the dolls that we have live a world of their own
In which no adult mind is able to prone?
Can they see? Are they able to hear,
Even though on the outside this does not appear?

If I were to be made for the second time,
I wish to be a doll made very fine,
For when I die -- since it is written I will —
The doll shall remain even quiet and still,
Since the day I got her she knew from the start
I would grow old, but she would be smart.
For time was slowly catching up with me,
Yet could never touch her — you see!

After I die & my breath is the last,
It is « Suzy Q » who had the last laugh,
For now she'll sit from day to day
Waiting for another human to come her way!

كنّا نستمتعُ بتلاوةِ هذه القصيدةِ الإنسانيةِ العاطفيةِ المستغرقةِ مع ذلك فى شرحِ شواعرِها الشخصيةِ ، إذْ تتمنّى لو أنها كانت مثلَ هذه الدُّمْيَةِ التى لا حياةَ لها ، مُستمتعةً بالسعادةِ والحرّية ، وليس لديْها ما يُقلقُها ويَشْغَلُها ، بل تَنْحَصِرُ حياتُها فى الجلوس والتّحديقِ ، دُونَ حُرْقَةِ قَلْبٍ أو أَلَمٍ ، وهى على الرغمِ من صَمْتِها وكفّ بصرها تجلبُ لها العَزَاء والحُبورَ ، إذ أنها حينما تسكون فى عُزلتها كئيبة تستطيع أن

تخاطبَ هذه الدميةَ فتستمعُ الدُّميةُ إلى مَشاكلها ومتاعبها — كبيرةً كانت أم صغيرةً — وترى صاحبتَها فى سرورٍ تارةً وفى حُزنٍ حيناً ، ولـكنها حينما تـكون مسرورةً تعلم أن دُمْيتَها تُسَرُّ أيضاً ! وتعترفُ شاعرتنا بأنها تُسىء مُعاملةَ دُميتها أحياناً ، كما يحدث فى الحياة أن تسىء استعمالَ الأشياء التى تهمّك أكثرَ من سواها ، ولـكنَّ دُميتَها لا تتشاجر معها ! وتتساءلُ الشاعرةُ بعد ذلك : أكان يوجد فى العالم قُبحٌ وحُروبٌ لو أنه كان بَيْتاً للدُّمَى ؟ وهل تحيا الدُّمَى التى نحوزُها حياةً خاصةً بها ؟ وهل تستطيعُ أن ترَى وتسمعَ ولو لم يدلّ ظاهرُها على ذلك ؟ وتمنّت لو أُعيد خَلْقُها ثانيةً أن تكون دُميةً جميلةً ، حتى إذا ما توفِّيتِ الشاعرةُ — والموتُ لا بدَّ منه — بقيتْ دُميتُها هادئةً ساكنةً ، إذ أنها كانت تعلم منذ أن أخرزَتْها أنها ستَسِنُّ فى حينِ أنَّ الدُّميةَ لن تَسِنَّ ، وحينئذٍ ستكون لِدُميتها الضَّحْكةُ الأخيرةُ وهى تنتظرُ إنساناً آخر يُعْنَى بها !

هذه القصيدةُ مِثالٌ للشعر الأمريكىِّ الفتىِّ الحديثِ فى صورةٍ مِنْ صُوَرِهِ — هى صورةُ البساطةِ أو السَّذاجَةِ المقترنةِ بالعُمْق فى الوقتِ ذاتِهِ . ليس فى هذا الشعر كثيرٌ من مذهب بول ڤاليرى الذى يتحدث عن كمون الفـكر فى الأبيات كما تكمن القيمةُ الغذائيةُ فى الثمار التى لا يَعنى المرء منها سوى مذاقها ؛ وليست فيه الاستعاراتُ الغريبةُ الجامحةُ ، وليس

فيه شىء من السُّرياليَّةِ الغامضةِ ولا من الرَّمزيةِ العجيبة ، وليس فى تضاعيفِه شىء جِدُّ مُثيرٍ ، ولكنه مع ذلك مِثالٌ بديعٌ للشعر الوجدانىِّ التأمُّلىِّ المطبوع ، الذى تتألف فيه الرُّوحُ الإنسانيةُ ، وتترقرقُ فيه العذوبةُ وبراءة الجمال .

وقد عُنينا بذكرِ هذه القصيدةِ من بين أشعار مارى بكستن كنموذج للشّعرِ الأمريكىِّ الحديثِ الذى يَستعزُّ بالعاطفةِ وجمال التعبير عنها مع اقتران الشّعور الشخصىّ بالشعور الانسانىّ فى وَحدةٍ مُشرقةٍ جذّابةٍ قبل أن يُشْغَلَ أو يَسْتَعِزَّ بأحاجٍ مِنِ الاستعاراتِ المركّبة والتشابيهِ الشاذّةِ المُغرِبَةِ التى يتوهَّم بعضُ النُّقّادِ أنها وحدَها أصبحتْ مِقْياسَ الشّعرِ الفنّى الرفيع .

ولم يَعبْ هذه القصيدةَ البساطةُ المتناهيةُ فى أُسلوبها المتحرّرِ كلّ التحرّرَ إلاَّ من مُوسيقَى النَّظم والقوافى — كأنما هو من لغة الأطفال حلاوةً وسلاسةً ، بل علَى العَكس كان هذا الاسلوبُ عُنصراً من عناصر جمالِها المطبوع . كذلك لم يَعِبْها تفاهةُ الموضوع (فى رأى بعض النّقّاد) ، فانّ قُدرةَ هذه الشاعرة الموهوبة خَلقتْ من موضوعٍ دُميةٍ تأمُّلاتٍ وجدانيةً إنسانيةً سامية ، وأثبتَتْ أنّ الشاعريةَ الأصيلةَ تتجلّى حتى فى أتفهِ المواضيع وفى أبْسَطِ الأساليبِ ، وتُبْدِع ممّا يُظَنُّ حقيراً نفائسَ

خالدةً للفنّ ، وأنه من الشَّطَطِ أن يُحاوِلَ أيُّ نقدٍ حَصْرَ النبوغِ وتحديدَ تأمُّلاته فى حينِ أنَّ الحياةَ تنظِّمُ كلَّ الوجودِ وفى جميع دقائقِه يتغلغلُ الشُّعورُ والفنُّ ، وإنْ لم يكن بطاقةِ كلِّ شاعر أو فنانٍ أن يرفعَ الحجابَ المسدولَ ما بين المظاهرِ ولُبِّ الوجود فى كُبرياتِه وصُغرياتِه المادية . والشاعرُ النابغةُ الذى يستطيعُ ذلك فى كثيرٍ من الأحايين تستحقّ مواهبُه الإكبارَ والإعزازَ ، لا النقدَ والمؤاخذة ، لأنه يكون بمثابةِ نبيٍّ من أنبياء الفنِّ يُوحَى إليه كيفما كانت المناسبةُ والموضوعُ والعاطفة .

مِنَ الفنِ الأمريكى

التّصويرُ اللّاموضوعىُّ

NON-OBECTIVE PAINTING

ألغزَ سليمانُ بنُ حسّان الصّيْنيُّ فى وصفِ شمعةٍ فقال :

وَمجْدُولَةٍ مِثْلَ صَدْرِ القنا ةِ تعرَّتْ وباطِنُها مُكْتَسِى

لها مُقْلَةٌ هى رُوحٌ لها وتاجٌ على الرّاسِ كالبُرْنُسِ

إذا رَنِقَتْ[١] لنعاسٍ عَرَا وقُطّتْ من الرّاسِ لم تَنْعَسِ

وإنْ غازلتْها الصَّبا حرّكتْ لِساناً مِنَ الذّهَبِ الأملَسِ

إلى آخرِ قَصيدتِهِ الظّريفةِ . فهذه القصيدةُ وما يماثلُها بِلُغَاتٍ أخرى مّما يُنْظَم عادةً لتسليةِ الأطفال ، هى ما يَحْضُرُ الأديبَ عادةً عنــدما ينظر إلى لوحاتِ التصويرِ اللّاموضوعىِّ *Non-Objective Paintings* ، لأنّها كثيراً ما تبدو أمامَهُ ألغازاً غيرَ مفهومةٍ ، لا تنظمُها غيرُ موسيقَى النَّظْمِ التى تخلُقُ الانسجامَ فيها وتَشْغَلُ فَرَاغَ السُّطور . وما هذا التّصويرُ اللّاموضوعىُّ ؟ هو تصويرٌ مادّتُه من الأضــواء والظّلال والأصباغ ، ومن الخطوط والدّوائر ، وقد تجسّم ولـكنّها لا تدلّ

---

(١) رنقت : كدرت .

على أيِّ موضوع ، بل كلُّ قيمتها فى أنّها مستَمدَّةٌ من الحسّ الرُّوحى، فهى تَعتمدُ على الإدراك الباطنى ، وقيمتُها محصورةٌ فيما تنتظمُه للعينِ من عناصرِ الجمال الشائع خِلالَ اللوحة وفيما توحيه من الانطلاق الرُّوحى ، دون أن تمتَّ فى أشكالها الظاهرية إلى موضوع معيَّن ، فهى بنت الوحى وأثرُها إيحائىٌّ مَحْضٌ ومن الموسيقى ما هو لا موضوعىٌّ ، ولكننا لا نعرف شعراً لا موضوعياً ، ولا نتصوّر إمكانَ نَظْمِه خالصاً .

وبديهىٌّ أنَّ التّصويرَ اللَّاموضوعىَّ يترتبُ على حاسَّةِ البَصَرِ ، وهى بلا ريب أسمى منزلةً من حاسّة السّمع لأنها أكثرُ استقلالاً وأقدرُ على تكييفِ رغباتها والدفاع عن شخصيتها . ولوحاتُ التصوير أخلدُ من الألحان التى تضيعُ بمجرَّدِ عَزْفِها ما لم تدوَّنْ وتُسَجَّلْ ، وطبعاتُ اللوحات أعمُّ للمُتْعة البشرية . وهذا لا يَنْفِى جلالَ الموسيقى الرائعةِ المسطورةِ الميسورةِ وأثرَها العظيمَ فى التّسامى بالنفوس . ولكنَّ الأُذنَ لا تُسْعِفُ النَّفْسَ كما تُسعفُها العينُ سواء تمليّاً أو قراءةً . ومِنْ ثَمَّـةَ كان فى طاقةِ الآلافِ بل الملايين الاستمتاعُ المتكرر بالفنونِ الجميلةِ المنظورةِ (ومِنْ بينِها الشّعرُ المدوَّنُ) مِنْ أهونِ سبيلٍ .

وروائعُ الشّعرِ الموضوعىِّ *Objective Art* مِنْ مدرسيَّةٍ وغير مدرسيَّةٍ أشهرُ مِنْ أَنْ تُعرَّفَ ، وأعظمُها — بلا ريب — ما كانت

له سِماتُ الابتداع وروحُه ، فالخلقُ أى الابتـكارُ — لا المحاكاةُ — هو الفنّ .

والفَنُّ اللاموضوعىُّ فى تعريف هِلاَّ ريبيْ *Hilla Rebay* (الفنّانة الأمريكيةِ الشهيرةِ وإحدى رائديه ، بل فى طليعتِهم بِأمريكا)[1] هو الإحساسُ الـكَوْنىُّ الذى تجمّله العبقريةُ ، وقواعدُه هى قواعدُ الإيقاع السَّرْمَدىِّ الذى يُدركهُ المرء دونَ أن يراه ، فهو البديهةُ التى تُصبح منظورةً ، وهو تعبيرُ السُّمُوِّ الرُّحىِّ لأنَّه بمثابةِ البيانِ التصويرىِّ لإحساسِ التصوُّفِ الـكونىِّ . إنّه يَعتمدُ — كما ألمعنا قبلاً — على أدواتٍ بسيطةٍ من خُطوطٍ ودوائرَ وأصباغٍ وأضواء وظلالٍ ، ولـكنّها مبثوثةٌ فى انسجامٍ بفراغِ اللَّوْحةِ بحيث يَخْلُقُ مجموعُها فى نفسِ الرائى الإحساسَ بالجمالِ الذى استولَى على رُوحِ الفنَّانِ ثم على ريشتِهِ حين بَثَّه فيها .

فإذا نظرنا مثلاً إلى لوحةِ فاسيلى كانْدنسكى *Vasily Kandinsky* البديعة المسّماةِ « خطوط سوداء *Black Lines* » وجدنا ألوانها المنوّعَة

---

(١) *Value of Non — Objectivity* بقلم هلا ريبى *Hilla Rebay* نشر *Solomon R. Guggenheim Foundation, New York* « قيمة اللاموضوعية » .

« وفن الغد » *Art of Tomorrow* من نشر المؤسسة ذاتها ، وعن « الروحية فى الفن » *On the Spiritual in Art* الترجمة الانجليزية تأليف فاسيلى كاندنسكى *Wassily Kandinsky* .

وتَدَاخُلها الجميلَ وما فيها من خطوطٍ ونقاط موحيةٍ بالحركةِ والحياةِ الخصبةِ والدِّفْء والفرحةِ ما يُشعرنا بروح الصَّيف ، ولو خُيِّرنا لآثرنا هذا الاسم لها على اسمها المعروف .

إنَّ الفَنَّ اللاموضوعيَّ يُعْنَى بالفراغ على اللَّوْحَةِ وباستغلالهِ استغلالاً فنِّياً يعبِّر عن نوعِ الوَحْي المستَمدِّ منه ، لا عن موضوع معيَّنٍ بأشكالٍ معيَّنةٍ . ولكاندنسكى كما لِغيرِه من الرائدينَ أمثالِ مُوهولى — ناجى *Moholy – Nagy* ورودولف باوَرْ *Rudolf Bauer* وهِلَّا ريبيْ *Hilla Rebay* بدائع كثيرةٌ منوّعةٌ معبِّرةٌ عن مُنَوَّع الأَحاسيس التصوُّفيةِ الكونيةِ ، وعلى سبيل المثال نذكر لموهولى — ناجى لوحته المسماةَ « طابعَ أمواجِ الفضاء *Space Modulator*» والتى نؤْثِرُ أن نسمّيها « عالم جديد » وكأنَّها مخلوقةٌ من الضَّوء المنوّع خلقاً ، وكذلك فى تكوينها الزجاجىّ المجسّم ، فتأمُّلها يَملأُ الإنسان بِتَصَوُّفٍ كونيّ فريد ويسمو به فوق كونه المألوف ، بَلْه عالمَه الأرضىَّ . هذان مِثالان مِنْ تأثُّرنا بنموذجيْن للفنّ اللاموضوعى ، وقد يختلف تأثُّرُ غيرِنا عن تأثُّرِنا ، وربَّما تبايَنَ تبايُناً كبيراً . وهذا حالُ جميع الفنون ، بل شأنُ ضُروبِ الحياةِ العقليةِ والعاطفيةِ جميعها .

إنَّ فلسفة التصوير اللاموضوعىّ ليست فى الرمزية *Symbolism*

ولا فى التجريد *Abstraction* ، فهى ليست منهما فى شىء ، وإنما هى تجميلُ الفَضاء بما يُوحى بحياةٍ إيقاعيَّةٍ ما بين الأشكال المنقوشةِ التى تَخُطُّها يدُ الفنانِ فى غيرِ وَعْيٍ ولا تعمُّدٍ ، ولكنها مع ذلك تأتى فى انسجامٍ بديعٍ وتَوَازُنٍ شائقٍ تجمع بروحانيتها عناصِرَها المختلفةَ بحيث يَستمتعُ المرء بالتطلُّع إليها والإمعانِ فيها كما يَستمتعُ بأغنيةٍ حُلوةٍ تتفتَّح لها الأذنُ ، ولو أنَّ مِن الناسِ مَنْ لا تَشْتَمْرِئُ طبيعتُه الفنَّ كيفما كانَ بل يَعيبُه ، فيصحّ أن يُقالَ له :

كُنْ أنتَ نفسى واقْتَرِنْ بعواطفى تَجِدِ المَعيبَ لدىَّ غيرَ مَعِيب

والرَّاجحُ أن كثيرين سيجدون فى النَّموذَجَيْن اللَّذَيْن أشرْنا إليهما — على سبيل المثالِ — مُوحياتٍ مختلفةً عمَّا أحسسْنا به إزاءهما ، ولكنْ لا ريبَ فى أنَّهما مثالان من أمثلة الجمال الفنِّىّ اللاموضوعىّ ، وفى أولهما رُوحُ الطبيعة القريبةُ ، وفى ثانيهما روحُها السَّرمديةُ التى تُتَخَيَّلُ فى السكون عامةً . وثمة أحاسيسُ كثيرةٌ إزاءَ النماذج الأخرى العديدة التى يَزْخَرُ بهـا (متحفُ التصويرِ اللاموضوعىّ — *Museum of Non-Objective Painting*) فى نيويورك ، وهو فيما نَعْلَمُ المتحفُ الفخمُ الوحيدُ من طرازِه فى العالم ، والمظهرُ الفنىّ الباذخُ لروح التحرُّر المُطلَقِ الأصيلةِ فى الشَّعْبِ الأمريكىّ ...

ليس الفنُّ الخلّاقُ فى مُحاكاةِ الطبيعةِ ، فالفُوتوغرافيا مثلاً أو المسجِّلُ الصوتىُّ لأصواتِ الطبيعةِ المختلفة كفيلٌ بذلك ، و إنّما يكون فى استيحاء رُوحِها أو فى إيداعِ روحٍ منافسةٍ لها ، وقد يَكْمُنُ الفنُّ الخلّاقُ فى الآثار الفنّيةِ الأكاديمةِ ، أو الانطباعيّةِ *Impressonistic* ، أو التكعيبيّة *Cubistic* ، أو التّجريدية *Abstractive* ، كما يكْمُنُ فى الآثار الفنّية اللاّموضوعية *Non-Objective* ، لأنّ الفنّ مرآةٌ لشخصيّةِ الفنّانِ ، وكيفما كان المجالُ لا يمكن مَحْوُ تلك الشّخصية . و إنّما يتميّزُ الفنُّ اللاّموضوعىُّ بأنّه لا يَستعينُ بالموضوع للتأثير ولا لإعلان طاقته من الجمال ، بل يَعتمدُ على خصائصه الذاتية التى تُشِيعُها عبقريّةُ صاحبِه فينقلُ أحاسيسَه وتأمُّلاتِه إلى نفسيَّة الرائى أو المستمع إذا كان أهلاً للتجاوُبِ معه . وعلى هذا الأساسِ نعرفُ كيف أنَّ من الشِّعرِ أو من النّحتِ مَا قد يَنحطُّ عن مستوى الفنّ لأنّه يكون مجردَ تصويرٍ للمرائى أو للحوادثِ دونَ إبرازِ رُوحِها ، فى حينِ أنَّ الفنَّ الرّاقى (ولو كان مِنْ أثرِ مناسبات عابرة) يتضمن من معانى الجمال والفلسفة الإنسانية أو الكونيّة مايسمو به فوقَ حُدودِ المناسباتِ العابرةِ والحوادثِ الطارئةِ والشؤونِ الشخصيةِ المَحْضَة .

وصفوةُ القَوْل إنَّ التصويرَ اللّاموضوعيَّ الذى بلغَ ذروةَ الرُّقىّ في أمريكا بعد تطوُّر أشرفَ على الخمسين عاماً يُعَدُّ من طرائف الطَّلاقةِ الفنّيةِ الايحائيّةِ ، وهو أكيداً خليقٌ بدراسة الأدباء والفنّانين أينما كانوا وكيفما كانت مَذاهبُهم .

آن سابوريتى والسريالية فى الفن

ANNE SAPORETTI & SUR-REALISM IN ART

إذا ذُكِرَتِ الثقافةُ الأمريكيّةُ اتّجهَ التفكيرُ على الفوْر عند كثيرين من النّاس خارجَ أمريكا إلى التّقدُّمِ العلميّ والطبيّ والتكنولوجيّ وتُنوسيتِ النّهضةُ الأمريكيةُ العظيمةُ فى الفنونِ المنوّعةِ ومن بينها فَنُّ الرّسْمِ والتّصويرِ ، ولو أنّ التكنولوجيا الأمريكية هى هى عِمادُ الحضارةِ الحديثةِ التى تَتسابقُ إلى الأخذِ بها كلُّ أمّةٍ حيّةٍ .

لذلك يَشوقُنا فى الوقت الذى بلغَ فيه الشعرُ العربىُّ السُّرياليُّ فى الشّرقِ مَكانةً ممتازةً — كما نرى فى دواوين منظومات كامل أمين وألبير أديب وجورج حنين ومحمود حسن اسماعيل وعادل أمين ونازك الملائكة وكامل التلمسانى وغيرِهم ، وبينهم مَنْ نظمَ بالفَرنسيّةِ أولاً مثل جورج حنين صاحب قصيدة « انتحار مؤقت » الشّهيرة[1] — وفى الوقتِ الذى أطْلَعَ الشرقُ العَرَبىُّ أيضاً رسّامينَ ومصوّرينَ سُرياليّينَ ممتازينَ على رأسِهم الأستاذُ رمسيس يونان — أجَلْ يشوقنا

---

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتى (ص ١٤٦) — (طبع دار المقتطف بالقاهرة) .

فى هذا الوقتِ أن ننوّهَ بالنهضةِ الفنّية الأمريكية فى التصوير السُّريالىّ ، التى تمثلها أكملَ تمثيلٍ الفنّانةُ المبدعةُ *Anne Saporetti* آن سابورتى كما تجلّى فى مَعرضِها الشتوىّ فى يناير من سنة ألفٍ وتِسعمائةٍ واثنتين وخمسينَ فى رِواقِ دِلْيَس *Delius gallery* بمدينة نيويورك ، حيث عُرِضَت اثنتان وعشرون لوحةً هَفهافةً رشيقةً مِنْ ريشتِها الساحرةِ مُنَوّعَةَ الخواطر والموضوعات العاطفية الحالمة .

ولماذا نذكر الشِّعرَ السُّرياليَّ إلى جانب الرَّسْمِ والتَّصوير السُّريالى ؟ إنّما نذكره لأننا فى مَجال الحديثِ إلى الأقطار العربية التى اعتزَّ فيها الشِّعْرُ السُّرياليُّ فى بَعْثِها الأدبىّ الجديد ، كما أخذَ يَعتزُّ التصويرُ السُّرياليُّ كذلك ، ونذكرهُ لأنَّ السُّرياليةَ هى فى الأصل حركةٌ أدبيةٌ ثم سَرَتْ إلى التصوير[١] بل انتقلتْ إلى التَّمثيلِ والسِّينما كما نَرَى فى أساطير هوفمان *Tales of Haffmau* ، ونذكره لأنَّ فى توكيدِ وَحدةِ الفُنونِ مُتْعَةً أكبرَ وتوسيعاً لآفاقِ التّقدير .

إنَّ السُّرياليةَ هى بنتُ اللاَّوَعْيِ أو العَقْلِ الباطنِ ، وهى تُعْنَى

(١) **System and Diolectics of Art** تأليف **Cohn D. Grahame** (طبع **Delphic Studios** فى نيويورك) ، وكذلك كتاب **Art of This Contury** لمحررته **Peggy - Guggenheim**

بتوكيدِ حقيقةِ الأشياء غيرِ المادّية و بتوكيد وهميّةِ الأشياء المادّيةِ ، على حدِّ تعبيرِ ألبرت أينشتين :

ونحن بإزاء فنّانةٍ موهوبةٍ نابغةٍ تَذهَبُ فى سُرياليّتها إلى حدودٍ بعيدةٍ ، بل تَكادُ لا تُوجَدُ لها حدودٌ . وهى لا تحاول أية محاولةٍ فى أن توفّقَ ما بينَ الوَعْى واللاوَعْىِ فى تكييفِ موضوعاتِها وتأليفِ صُوَرِهَا ، كما صنع كثيرون من قبل من المصوّرين السُّرياليين البارعين ، ولكنها تَذهَبُ إلى أقصى من ذلك ، فتعطينا نماذجَ من أحلامها التى كاد يعفيها النسيانُ ولذلك تبدو لوحاتُها باهتةً أثيريةً كأنها خليطٌ من عناصرَ منوّعةٍ لأحلام لم تبقَ منها غيرُ ظلالٍ . وهذا مّما يُكسِبُها جمالاً خاصًّا بها ، ومما يخلُقُ منها ألغازاً لدارسى الأحلام والنفسيّات . أمّا عن صناعتِها فى الرَّسْمِ التى تَخلُقُ — فيما يُخالُ عدمَ مبالاةٍ — هذه العجائبَ ، فهى من البراعة بمكانٍ عظيمٍ كما شهدَ لها أشَدُّ ناقديها[1] ، وتكاد أصباغها تَحْصَرُ فى الأسود مع الأبيض فى اللّون الرماديّ الخفيفِ الرشيقِ .

ونحن لو أردنا أن نُقارنَ بين لوحاتها و بين ما يَعرضُه جيمس

---

(١) مجلة *Pictures on Exhibit* لشهر يناير سنة ١٩٥٢ ، ص ٢٨ ، بقلم *Stanton Kreider* ومقال المندوب الفنى لجريدة النيويورك تايمس بتاريخ ١٢ يناير سنة ١٩٥٢ ، ومجلة *Art News* عن يناير سنة ١٩٥٢ .

جُويس مثلا فى كتابه (أولس) من صُورٍ تبدُو مفككةَ العناصر (فى حينٍ يَستطيعُ التأمُّلُ السيكولوجىُّ أن يَرْبُطَها بعضَها ببعضٍ) لما كنّا مُنصفين تمامَ الإنصاف بهذه المقارنة ، لأنَّ عناصرَها هى أطيافٌ شعريةٌ انتزعَتْها لوحاتُها من أحلامِها شبهِ المنسيَّةِ وسجَّلَتْها بأصباغِ الحالمينَ الباهتةِ .

ومِنْ حَقِّ الدَّارس النّفسانىّ لهذه اللوحات البديعة التى تَنتظمُ عواملَها النفسيَّةَ ونزعتها الفنيةَ أن يعرفَ أنَّ هذه الفنَّانةَ الموهوبةَ التى تُناهزُ الأربعينَ هى من أُسرةٍ ترجعُ إلى *(New England)* نيو إنجلاند ، فهى من أُسْرَةٍ أمريكيةٍ جِدِّ محافظةٍ مقَرُّها فى پورتسموث بولاية نيوهامْبشر . وقد درستْ الفَنَّ فى باريز التى تُعَدُّ مَهدَ السُّرياليةِ الحديثةِ ، وساحت كثيراً فى غربىّ أوروبا وايطاليا وتشرَّبَتْ ثقافتَها إلى جانب استيعابها للثقافة الأمريكية ، وأقامتْ فى باريزَ سَبْعَ سنواتٍ كاملةٍ من سنةِ ألفٍ وتِسعمائةٍ وثلاثٍ وثلاثينَ إلى سنةِ ألفٍ وتِسعمائةٍ وأربعين ، ثم انتقلتْ مع زوجها الفنّانِ إلى الولايات المتحدة وعادتْ إلى باريز فى سنة ألف وتسعمائة وستٍ وأربعين معه ومع ابنتها الأمريكية الطفلة ، وبقيتْ فى مدينة النُّور الأوروبية نحو سنتين ، وأخيراً انتقلتِ الأسرةُ إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وسُرعانَ ما تجلّى فَنُّها وفَنُّ زوجها

فى هذا العالمِ الجديد الذى هو مسقطُ رأسها كما كان مسقط رأس إدجار ألن بُو الخيالىِّ الحالمِ الذى تُسْعدها قراءتُه كما يُسْعِدُها العَزْفُ على المَنْدُولين برشاقةٍ هى أشبهُ ما تكون برشاقتِها التّصويرية ، وكما يُسعدها الاستغراق فى أدبِ فرجيل وأدب جوليين جراك *Julien Gracq* .

وليس من الميسور دَرْسُ جميع اللوحاتِ المعروضةِ فى هذا المعرض الشائق ، وعلى الأخصّ لأن جميعَها من طرازٍ واحدٍ ، إلّا فيما ندَرَ حين تنحرفُ قليلًا إلى شيء من الكلاسيكيةِ الجديدةِ فى تصوير الوجوه ، فِبحسبنا أن ندرس نماذجَ منها ذاكرين كيف كان الأُدباء والفنانون حتى فى سنة ألف وتِسعمائةٍ وخمس وعشرين يتناقشون فى صلاحيّة السُّريالية أو عدم صلاحيتها لفنّ التصوير ، معتمدين على بحث ماكس إرنست (*Surrealism by Max Ernst*) الذى صدر قبل ذلك الحين بخمس سنينَ .

فمن صُوَرِها المركَّبةِ لوحـــةُ « الشاطئُ الجنوبىّ الغامض — *Enigmatic South Beach* » التى نقشَتْها بوحى زياراتها السابقة لإيطاليا والجنوبىّ أوروبا . ففى صدر هذه اللوحةِ نرَى رأساً كبيراً لتمثالٍ يونانىّ يُغَطِّى أعلاهُ ويتَهدَّل إلى جانبه نسيجٌ زاهٍ ، وكأنما التمثال رمزٌ إلى مجد سابق ألمَّ به عقلُها الباطنُ ثم بدَا فى الحُلمِ المنسىِّ الذى انتظمته

لَوْحَتِها ، وكأنما الغطاء الزّاهي الثمينُ المتدلّى منه فيه مَعْنَى الإكرامِ كما فيه مَعْنَى التّنْبيه والإحياء لذلك المجد . ومُلْقًى أمامَ التمثال بعضُ الأصداف المهشّمةِ والمحارِ والكُمّثرى وعصاةٌ — وهى رُموزٌ لبقايا حَيَواتٍ سابقةٍ — ثم فى الركنِ الأيمن من اللّوحة صورةٌ آدميةٌ جانبيةٌ على لوحة صغيرة ، وقد رشقتها المساميرُ ، وكأنما هى صورةُ الماضى السيّئ يُعاقَبُ ويُقْضى عليه ! هذا ما يَقَعُ على شاطئ البحر غير المنظور . أمّا خلفَ ذلك التمثال فتبدو سيدةٌ وطفلتُها هما بلا ريب الفنّانةُ وابنتها ، وبينما الطفلةُ تتّجه إلى البحر غيرِ المنظورِ الذى يمثّل المستقبل تَتأَمّلُ السيدةُ فى الحاضر والماضى بتنوّع رموزهما من عمودٍ أو تمثالٍ أثرىّ على مِنَصّتِه ومن شُخُوصٍ ومن مَنارٍ ومَلاكينِ وسيدةٍ بمظلّتِها عن بُعْدٍ ، ومن سُحُب وغير ذلك خَلَقَتْها خطوطٌ سِنجابيةٌ يُخفّفُ منها البياضُ أحياناً ، وكأنما يَلفُّها جميعاً ضَبابُ خفيفٌ ، هو رَمْزُ النسيان .

ومِنْ صُوَرِها المركّبة تلك الموْسُومةُ «مَشْهَدُ المُتَنزّه *Park Scene*» حيث نرى فى لوحتها رجلاً عارياً جالساً على منضدة وهو يَعْزِفُ على المنْدُلين ، وإلى جواره سيدةٌ عاريةٌ إلا نصفَها الأسفلَ ، وقد وقفتْ على رأسها حمامة كنايةً عن السّلام ، واستندتْ بمرفقها الأيسر على كتف الرجل كنايةً عن اعتمادِها عليه ، وإلى جانبها طفلة تمثلتْ لُعْبتُها فى صورةِ

حامةِ أيضاً ؛ ولا ريبَ أنَّ الأشخاص الثلاثة يمثلون أسرةَ الفنّانةِ ، كما أنَّ حالةَ العُرى للرّجل والمرأة إنّما يعبّران فى تقديرى عن نفسيّةِ الفنّانةِ (التى نشأتْ فى وسطٍ محافظٍ) مَن ناحيةِ تعلّقِها الجديدِ بالحرّية فى كنف السَّلام العائلىّ . وليست الأشياء المبعثرةُ على المنضدة بجوار الرجل إلاَّ رموزاً لِشواغلِ الحياة وتكاليفها . ثم نرَى خلفَها سُوراً يَفْصِلُ ما بين شُرْفَةِ المتنزَّه التى آثَرَتْ الفنانة أنْ تكونَ وأسرتها بها ، كنايةً عن حرصها على استقلال أسرتها وعُزلتها فى سلامٍ وصفاء ، وبين المتنزَّه ذاتِه حيث يَتَسَلَّى النّاسُ ويَمرحون وحيث تَنهَضُ العُمُدُ الزّخرفيةُ والزُّهريّاتُ مُمثِلَةً عالماً آخرَ مِنَ الهُدوء والسَّلام تُحِبُّه هذه الفنَّانةُ ولكنّها تؤْثِرُ عليه عالمَهَا المستقلّ .

وثمّةَ بَيْنَ صُورِها المركّبَةِ الطّريفةِ صُورَةٌ تُدْعَى « لغز الشاطئ الجنوبىّ — *South Beach Enigma* » ، وأهمُّ ما فيها صورةُ سيدةٍ جالسةٍ وتوْأمُها واقفةٌ بجوارها مستندةٌ إليها ، وهما بلاريب يَرْمِزَانِ إلى الشخصيَّةِ المزدوجةِ ، ثم أمامهما بعضُ نِفاياتِ الحياةِ وحوائجِها مِنْ صَدَفٍ وفاكهةٍ وزَهْرٍ ويدٍ من الجِصِّ ، كنايةً عن اليد العاجزة عن الحصول على مَطالب الحياة ، وخلْفَ السّيدتيْن نرَى الهَضْبَةَ التى تمثّل الطّموحَ فى الحياةِ وقد نظرَ إليها إنسانٌ متأمّلٌ طموحٌ ، كما بدا

حائطٌ جلستْ أمامَه سيدةٌ جِلسةَ التّحدِّى ، وثمةَ السيدةُ التى تَسيرُ بِظَلّتها سَيرَ الغُرور ، وقد تلبَّدتِ السّماء — سماء الحياةِ — بالغُيوم كنايةً عن اضطرابها .

ولا ريبَ أنَّ لوحتَهـا « التَنَزُّهَ الملائـكىّ -- Promenade Angelique » هى من رَوائعِ صُوَرِها المركَّبة ، إذْ ترى فيها أساسياً ملاكاً فَرِحاً سائراً وقد رَفَعَ جَناحَيْهِ ، يتْبَعُهُ مَلاكٌ حزينٌ انخفضَ جَناحاه وقد وضع يدَه اليمنى على رَأْسِهِ المتْعَبِ ، وخلفَهما شَبحُ كَلْبٍ كاسفِ البالِ متّجهٍ وجهةً أخرى ، إشارةً إلى عَناء الوفاء فى هذا العالم ، كما أنَّ المَلاكَيْن يمثّلان شَخْصاً واحداً إشارةً إلى أنّ الحياةَ — حتى أنقاها وأطهرها — صَفْوُها وكَدَرُها توأمان .

ومِنْ أبدع لوحاتِها الفَرْدِيّةِ صورةُ « المَلاك — Angel » رافعاً جَناحيْه وهو يَهُمُّ بالدخول من بابٍ مفتوحٍ حاملاً البُشرى الطيبةَ . والوَجْهُ الجميلُ الواضحُ ليس من الُحلم المنسىِّ فى شىء ، وإنْ كان أثيرىَّ السِّماتِ . وأمّا بقيةُ الجسمِ العارى فأشبهُ بجسم (آريل) كما رسَمه بعضُ الفنانين فى تصويرهم (العاصفةَ) لِشِيكسبير ، ولـكنَّ القَوامَ ممشوقٌ فارعٌ كالقَوامِ الأمريكىِّ الأُنثوىِّ الحديثِ . ولا يَسَعُ مُحِبَّ الفَنّ إلا أن يقفَ مُعْجَباً مبهوتاً أمامَ حِذْقِ الإخراج الجرىء مع المُراعاةِ

التامّة لدقّة التشريح فى الرسم . ولمّا كان واضحاً أنّ الفنانة هى بذاتها الممثّلة فى الصورة ، فالباحث السّيكولوجى قد يرى فى هــذه اللوحة إيمانها برسالتها الخيّرة فى الوُجود واعتدادَها المستور .

هذه لمحاتٌ خاطفةٌ وتفسيراتٌ عَنّتْ لنا لهذا الفنّ الأمريكىّ الحديث الذى يُحَجُّ إليه ويُتهافت عليه مِن أقطار شتّى ، ولعلّ فى حديثنا هذا ما يَطيبُ لمستمعينا ولفنّانينا على اختلافِ مَذاهبهم فى العالم العربىّ .

في أدب الملونين

بوكر وشنطن

Booker T. Washington

رَحِمَ اللهُ المتنبِّيَ القائلَ : —

وما الُحسْنُ فى وَجْهِ الفَتَى شَرَفًا له — إذا لم يكنُ فى فِعْلِهِ والخلائقِ

وما بلدُ الإنسانِ غيرُ الموافِقِ — ولا أَهْلُهُ الأدْنَوْنَ غيرُ الأصادِقِ

وجائزةٌ دَعْوَى المحبَّةِ والهَوَى — وإنْ كان لا يَخْفَى كلامُ المُنافقِ

وما يُوجِعُ الحرمانُ مِن كَفِّ حارمٍ — كما يُوجِعُ الحرمانُ مِنْ كَفِّ رازقِ!

ثم رَحِمَ اللهُ الزَّعيمَ الزِّنجيَّ الرائدَ بُوكر وشـنطن *Booker T, Washigton* الذى نالَ مكانةً بارزةً فى تاريخ أمريكا التعليميِّ يَفتخرُ به الأمريكيون جميعاً والذى يَنطبقُ عليه شعرُ المتنبِّيَ من الوجهةِ الإيجابيةِ .

لقد أَلَّفَ بوكر وشنطن جُملةَ كُتُبٍ أشْهرها ترجمةُ حياتهِ الموسومة « النُّهوضُ من العُبودية — *Up from Slavery* » وقد تُرْجِمَتْ إلى ثمانى عَشَرَةَ لغةً ، وما أحراها بأن تُنْقَلَ إلى العربية .

وغيرُها كتابهُ « مستقبلُ الزِّنجيِّ الأمريكيِّ *The Future of the American Negro* » وكتابهُ « البَذْرُ والحِصَادُ — *Sowing and Reaping* » وكتابه « بِناءُ الُخلق — *Character Building* » وكتابه

« العملُ باليديْن — *Working With the Hands* » وترجمته للزّعيم الزنجى فردريك دجلاس *Frederik Douglas* المعدودِ أوّلَ زنجى مُصلحٍ رائدٍ فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وله كُتبٌ وأوراقٌ أخرى قيّمةٌ منها نحو مائةِ ألفٍ وثمانينَ ألفِ ورقةٍ تَشْملَ عِدّةَ موضوعاتٍ منوّعَةٍ أهداها (مَعْهَدُ تَسْكيجى *Tuskegee Institute*) إلى مكتبة الكونجرس الشهيرة بوشنطن ، وهى تُؤَلِّفُ مَرْجِعاً من أغنى المراجع وأهمها عن تاريخ الزُّنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية ، كما تشهد بعظمةِ هذا الرجل النفسية التى تتمثل فى قولهِ الشهيرِ : « تُقاس حياة كلِّ إنسانٍ بالقُدرةِ التى لدى الفَرْدِ لجعلِ العالمِ أصلَح ، فهذا هو كُلُّ ما تَعنيهِ الحياةُ » .

لقد بَلَغ هذا العصامىُّ الجليلُ منزلةَ الْخلودِ فى أُمّتهِ بمحضِ مواهبهِ وكفايتهِ وسماحته وإنسانيته على الرغم من انتسابه أصلاً إلى العبيدِ ، وعلى الرغم من ضعة حالهِ ، لأنَّ المواهبَ الرفيعةَ لا يمكن أن تُجْحَدَ فى كلِّ وقت ، ولأنَّ مَنْ يَحترم نفسَه ويَحترمُ مثاليّاته العاليةَ ويُؤمنُ بالانسانيةِ لا بدَّ أن تُؤْمِنَ به الانسانيةُ فى النهاية . وقد اعتادَ المتظلّمون أن يتحدَّثوا عن حقهم المسلوب سلبياً . أمّا بوكر وشنطن فقد عَمِلَ على استرادهِ إيجابياً لنفسه ولأبناء جلدته فى وطنٍ لا يَضنّ بالفُرَصِ المتكافئةِ

ويعملُ باستمرارٍ للقضاء على التقاليد البالية على الرغم من كلِّ العقباتِ الموروثةِ . والاكتفاء بالشكْوى لا يُجْدى فى هذا العالَم ، وإنما الذى يُجْدِى هو التذرُّع بالوسائل التى تكسب القوّتيْن الأدبية والمادية وتُكسبُ الاحترام ، سواء أكان هذا للأفراد أم للطوائف أم للشعوب ، وحينئذ ، وحينئذ فقط ترْهَفُ الآذانُ لسماع الشكوى وتتفتّحُ الأذهانُ والقلوب للعطفِ والإنصاف . وهذا ما أدركه بوكر وشنطن بثاقبِ نظرهِ بعد أن بلغَ منزلةَ الرجال وما أدركه بغريزته كصبيٍّ صغيرٍ .

وُلِدَ هذا الماهدُ — كما يُقَدَّرُ — فى الخامس من أبريل سنة ألفٍ وثمانى مائةٍ وستٍّ وخمسينَ فى مزرعةٍ بمقاطعةِ فرانكلين بولاية فرجينيا وسطَ البؤسِ والإدقاع الشّديدِ ، وكانت أُمُّه طاهيةً عَلَى المزرعةِ ، فعاش معها ومع أخيه وأختِهِ فى كوخٍ صغيرٍ لَا يتجاوزُ غرفةً واحدةً . وهو يذكر تلك الظروف التّعِسَةَ دون مرارةٍ فى ترجمة حياتهِ ، ويذكر ابتهالاتِ أمّه وصلواتِها وضراعاتها إلى الله أن يحرّرها ويحرّر أطفالها من رقّ العبوديةِ . وقد استجابَ اللهُ دَعَوَاتِها إذْ أُعْلِنَ تحريرُ العبيدِ حينما كان بطلُنا المترجمُ له فى التاسعةِ أو العاشرةِ من عُمرهِ . وحينما ندعوه « البَطَل » لا نغالى فى الوصف ، فقد علّمَ نفسَه بنفسه ، ولم يأنف من أحقرِ الخِدَمِ لأنه عَدَّ كلَّ عملٍ حلالٍ شريفاً . وعدَّ نفسه محظوظاً حينما

التحقَ بمدرسةٍ صناعيةٍ أسَّسَها الجنرالُ صموئيل أرمسترونج فى بلدةِ هامبتون بولايةِ فرجينيا حيث كان الزنوج يتعلّمون ويكسبون فى الوقتِ ذاتهِ لقاء بعضِ الأعمالِ اليدويّة . وفى صباح يومٍ من سبتمبر سنة ألفٍ وثمانى مائةٍ واثنتين وسبعينَ بلغَ بُوكر تلك المدرسةَ وكلُّ ما فى جيبه خمسون سنتاً ، وكلُّ ما فى ذهنه أولياتٌ طبيعيةٌ حصَّلهاَ بنفسه فى أشقِّ الظروفِ حتى تَرَدَّدَتْ ناظرةُ المدرسةِ فى قبولهِ ، ولكنَّ تفانيه فى القيام بواجباتهِ سُرْعَانَ ما جعلَه أثيراً . لقد قطع إلى ذلك المعهد التعليمىِّ خَمسمائةَ ميلٍ معظمُها على قدميْه من سكنه فى غربىّ فرجينيا ، فكوفئَ على عزْمهِ وجَلَدهِ وعرفانهِ الواجبَ خيرَ مكافأةٍ بالرضاء عنه وباستمرار دراسته حتى أتمَّ تَعلُّمَ صناعةِ البناء . ولم يكتفِ بذلك بل درسَ فى مدرسةِ ويِلْاند ***Wayland*** حتى يُهيِّئَ نفسَه ليكونَ سكرتيرَ الجنرال أرمسترونج ولينظم فى هامبتون فصلاً للتّعليم الليلىِّ أيضاً . وقد أحبّ هامبتون التى تعلَّم فيها — كما قال فيما بعد — « أنَّ أسْعَدَ الناسِ هم أولئك الذين يَعْمَلُونَ أكثرَ ما يُعْمَلُ للغير » .

أحبَّ بوكر أرمسترونج حبًّا جمًّا وبقىَ طُول حياتِه صديقَه الحميمَ . فلا غرابة إذا عَهِدَ إليه الجنرالُ أرمسترونج بتأسيس مدرسةٍ لتدريبِ المعلمينَ الزُّنوجِ سنةَ ألفٍ وثمانى مائةٍ وستٍ وسبعين فى بلدة تَسْكِيجى

بولاية ألباما *Tuskegee* . وكان هَمُّ وشنطن أن يُعلِّم تلاميذَه فنَّ الحياةِ من جميع النواحى حتى يعرفوا كيف يعيشون وكيف يخدمون أنفسَهم ووطنَهم بعد مغادرتِهم مَعْهَدَهُمْ ، وكيف يَكسِبُونَ رزقَهم مستقلين ، وكان يؤمن بأنَّ هــذا المسلكَ وحدَه هو الذى يُؤدِّى إلى النهضةِ الاقتصاديةِ والاستقلال . ومُذْ كان رجلًا متديناً مستقيما فقد بثَّ رُوحَ الاستقامةِ والتديُّنِ هــذه (التى ورثَها عن والدته خاصَّةً) فى نفوس طلبته ، كما بثَّ فيهم التعلُّقَ بالأرض التى جاء أغلبُهم منها حتى يعودوا إليها عناصرَ وعوامل طيبةً للإصلاح .

وفى الأربع والثلاثين سنةً التى تَلَتْ تأسيسَ تلك المدرسة حتى وفاةِ بوكر وشنطن فى الرابع عَشَرَ من نوفمبر سنةَ ألفٍ وتسعمائةٍ وخمسِ عَشَرَةَ كَرّسَ جُهودَه لخدمة أبناء جلدته الزُّنوج خاصَّةً وذلك بالتعليم والمحاضرةِ من أجلِ مَعْهَدِه الحبيب فى تَسْكِيجى *Tuskegee* الذى بلغ من الشهرة والاحترامِ منزلةً قوميَّةً ، حتى إنه عند وفاته بلغ عددُ طلبة معهدِه الشهير ألفاً وخَمسمائةً وتسعةً وثلاثين بعد أن افتُتِحَ أصلًا بثلاثين طالباً فحسبُ كان هو وحدَه معلّمَهُمْ فى حين بلغ عددُ المعلّمين وقتَ وفاتِه مائةً وسبعةً وتسعين جميعُهم من الزُّنوج ، وكانوا يدرّسون نظرياً وعملياً ثمانياً وثلاثين مهنةً وصنعةً . وَنَمتْ مِلـكيَّةُ ذلك المعهد من محلٍّ

متواضع إلى ما أرْبَى على ألفى فدانٍ من الأرضِ ، مع مائةِ مَبنًى محترمٍ بناها طَلَبَةُ المعهدِ أنفسهم ، وقد تلَقَّى المعهدُ مِنْحَةً من الكونجرس خمسةَ آلافٍ وعشرين ألفَ فدانٍ فى شمالىّ ألباما ، ولديه من الهبات ما يُناهزُ مليونى دولار . ولم يُغفلْ بوكر وشنطن التعاونَ مع أعلام الزُّنوج المثقفين وسواهم ، وفى مقدمة هؤلاء يطيب لنا أن نذكر العالِمَ الزنجىَّ الذائعَ الصيتِ جورج وشنطن كارفر ***George Washington Carver*** الذى رَئِسَ قسمَ الزراعة بمعهده .

ولما تُوفى أبنّه الرئيسُ الأَسْبَقُ تيودور روزفلت خيرَ تأبينٍ . وفى سنةِ ألفٍ وتسعمائةٍ وستٍّ وأربعينَ وُضِعَ تمثالُه النّصفُّى فى قاعةِ الذكرِ والشهرة ***Hall of Fame*** بجامعة نيويورك وحيّا ذكراه الرئيسُ هارى ترومان أحسنَ تحيةٍ . وفى سنةِ ألفٍ وتسعمائةٍ وتسعٍ وأربعينَ وُضِعَ كوخ يماثل ذلك الذى يُظَنّ أن بوكر وشنطن وُلِدَ فيه بمحل مولده واعتبرته ولاية فرجينيا مَزاراً رسمياً يُجَلُّ ويُحَجُّ إليه .

وأمامَ عظمةِ ذكراه ونفسهِ السّاميةِ ووطنيّتهِ العاليةِ وإنسانيتهِ الفذّةِ يُباهى جميعُ الأمريكيين دونَ استثناء بانتسابهِ إلى هذا الوطنِ الذى بادلَهُ الحُبَّ والوفاء .

چورج وشنطن كارفر

فى التّاسع والعشرينَ من مايو سنةَ ألفٍ وتسعمائةٍ و إحدى وأربعينَ ظَهَرَتْ بجريدة (الأهرام) فى القاهرة النبذةُ الآتيــةُ :

« نشرتِ الصحفُ نبأَ فوز الدكتور وشنطن كارفر — وهو عالِمٌ زنجيٌّ من أمريكا — بجائزة روزفلت العلمية ، وعلَّقتْ على ذلك بقولها : إنَّ إحرازَ العالِمِ الزنجيِّ للجائزة دونَ الآخرين من علماء أمريكا يُعَدُّ دليلاً على أنّه ليس للعلم جنسٌ خاصٌّ ، وأنَّ العقلَ البشريَّ إذا صُقِلَ وقَوِيَتْ مَداركُه بالتهذيب آتَى أُكُلَهُ ، لا فرقَ فى ذلك بين الأَسْوَدِ والأَبْيَض ، أو السّامىّ والآرىّ . وقد شفعَتِ الصُّحفُ نشرَ الخبرِ بتهنئةٍ حارَّةٍ وجَّهَتْهَا إلى العالِمِ الزنجيِّ باسم الســـودانيِّين وسائر الإفريقيين » . وأذكرُ أنَّ هذا الخبر أحدثَ هزةَ إعجابٍ واستحسانٍ فى مصر بين المستنيرين والتقدُّميينَ ممزوجةً بشيء من الدَّهشةِ ! ولكنّى لم أدهَشْ لذلك الانتصارِ الذى فازَ به العقلُ والعِلْمُ لاعتبارَيْن : أحدُهما اطّلاعى السابقُ منذ سنة ألفٍ وتسعمائةٍ وثلاثَ عشرةَ على كتابِ (الإفريقىّ فى الخارج — (The African Abroad) [*] الذىألْهَمَنِي

(*) من تأليف الأســتاذ وليم فرس *William H. Ferris, A. M* فى جزأين ينظمان زهاء ألف صفحة من القطع الكبير مع صور عديدة من طبع شركة *The Tuttle, Morehouse & Taylor* فى نيوهيفن بأمريكا سنة ١٩١٣م

مُتابَعَةَ نَهضَةِ الزُّنوج فى أمريكا خاصَّةً بعد أن ظَفِروا بتحرُّرهم على يدِ أبراهام لِنكان ، وهى نهضةٌ مستمرةٌ لم تَعرفْ التَّوقُّفَ مطلقاً .

والآخرُ اقتناعى من اطِّلاعى ومن مشاهداتى وتجاريبى خلالَ إقامتى الطويلةِ فى انجلترا ومن اختلاطى بكثيرين من أهل العلم والفكر من جنسيَّاتٍ شتَّى — وبينهم غيرُ قليلٍ من الزنوج — بأنَّ المواهبَ ليست مقصورةً على جنسٍ دونَ آخر ، وبأنَّ العلمَ العالى (والتكنولوجيا خاصةً) إذا ما تَوَطَّدَ فى أمَّةٍ من الأُمِ أبرزَ المواهبَ الكامنةَ ، وعلى الأخصّ إذا كان المحيطُ الاقتصاديُّ والوسطُ الاجتماعيُّ مُساعدَيْن على النُّبوغِ كما هو الحالُ فى أمريكا . ومنذ آلافِ السّنين قبلَ الميلاد قامتْ حضاراتٌ رفيعةٌ بين البابليّين والكلدانيّين والمصريين والسُّومَريين والهنود وسواهم فى الشرقِ وبين الإغريقِ فى الغرب ، وتُبودلَ انتقالُ المشاعلِ الفكريَّة بين مِصرَ والإغريقِ ، ثم ورثَ الرومانُ الإغريقَ ، ثم سادت الظلمةُ أوروبا ، وكان للعرب (من أقحاح ومستعربينَ) فضْلُ نقلِ مشعل الحضارةِ إلى أوربا ثانيةً ، ومنها انتقلتْ وتطورّتْ وارتقتْ فى أمريكا حتى بلغَتِ الذروةَ فى هذا الجيل. والآنَ نَجدُ أمريكا محتضنةً نابغين من أجناسٍ وألوان شتَّى ، ونَرى الشُّعوبَ الشرقيةَ متيقّظةً من سُباتِها ، متهافتةً على التعليم العالى ،

مُلتفتةً إلى البُحوثِ العلميةِ ، وأخيراً مُثبتةً القانون الاجتماعيَّ البشريَّ الذى مهَّد لمثل جورج وشنطن كارفر النُّبوغَ و إفادة الإنسانية . وما مِنْ أمَّةٍ عُنيتْ بالتعليم الجامعيِّ و بالبحث العلميِّ التكنولوجيِّ و بتطبيقه ، و بالتطلع إلى التجديد المتواصل ، إلاَّ وخلقتِ النوابغَ باستمرارٍ وانتفعتْ منهم ونفعَتِ البشريةَ . والأممُ كالأفراد تَضْمَحِلُّ وتَهْرَمُ وتزولُ إذا ماسيطرَ عليها الجهلُ أو الجُمودُ أو كِلاَهُما ، بل إنَّ الجمودَ وحدَه كافٍ فى النهايةِ للقضاء على عزَّةِ الأمم ولو كانت متعلِّمةً .

فى هذا الوسَطِ الأمريكيِّ إذَنْ وَجَدَ جورج وشنطن كارفر فُرْصَةَ نُبوغهِ وتَرَعْرُعِهِ فى جَوِّ الحريةِ الجديد بعد العُبوديةِ السابقةِ التى لاقاها أبناء جنسهِ والتى استقبلته عند مَولدِه . ومع أنه لم يبدأ بمعرفةِ القراءةِ والكتابةِ إلاَّ حولَ العشرينَ تقريباً ، فإنَّ عبقريته تجلَّت فجأة فإذا به يتمكن من الحصول على درجة « بكالوريوس فى العلوم » وهو فى سنِّ الثلاثين ، ثمَّ على درجة « أستاذ فى العلوم » وهو فى الثالثةِ والثلاثين ، و إذا به يَحْظَى بمعرفةِ الزنجيِّ الرائدِ بوكرت . وشنطن ***BookerT .Wahsingtcn*** الذى كان يُعْنَى حينئذ بتأسيس مَعهد تَسْكِجى ***Tuskegee Institute*** فى ألبَاما فالتحقَ به تلبيةً لدعوةِ صاحبه فى سنة ستٍّ وتسعين وثمانمائة بعد الألف

للميلاد ، و بقى ملتحقاً به حتى آخر أيامه(١) حين توفىَ فى مَساء الخامس من يناير سنة ألف وتسعمائة وثلاث وأربعين عن ثمان وسبعين سنة .

ولكنَّ سيرة هذا الرّجلِ العلامةِ الرائدِ الذى عُدَّ مِنْ فطاحلِ هذا العَصْرِ بإقرارِ عباقرتهِ أمثالِ إديسن وفورد ، والذى نال احترامَ أعلامهِ وفى طليعتهم فرانكلين ديلانو روزفلت والكونجرس الأمريكىّ ، لم تَبْدأْ سَهْـلَةً هيِّنَةً ، بل كانت فى بدايتها شاقَّةً مؤلمةً فأَرْضَخَتْ مَصاعبها عِصاميَّتُه ونفسُه النابهة الغلاَّبة . وسجَّلَ صفحةً ذهبيةً متألقة ليسترشدَ بها الأفرادُ والأمم وعلى الأخصّ الأممُ المتخلّفةُ .

وُلِدَ كارفر حوالى سنة ألفٍ وثمانمائةٍ وأربع وستينَ من أبوَيْن رقيقَيْن فى مزرعة بالقرب من دياموندجروف بولاية ميزّورى . وقد فقد والدَه فى طفولته وسُرِقَ غيرَمتجاوزستة أشهر من العمر مع أمه إلى ولاية أركانساس ، ولم يُهْتَدَ إلى أمِّه بعد ذلك . أمَّا هو فقد افتداه من قاطعى الطرق مولاه موسى كارفر *Moses Carver* بجوادٍ عتيقٍ للسباقِ قُدِّرَتْ قيمتُه حينئذٍ بثلاثمائة دولار ، وكان الولدُ وقتئذٍ غيرَ كاملِ

---

(١) راجع كتاب *George Washington Carver — An American Biography* تأليف *Brackham Holt* وطبع *Doubleday & Company Inc. Garden City, New York.*

النُّموّ فأشفقَ عليه مولاه موسى الذى تَلَقَّبَ الولدُ بلقبِهِ ولم يكلِّفه بعملٍ مُضنٍ بل تركه يَمرحُ ، فهيَّأ له فُرْصَةً للجولان خارجَ الدّار ما بين الأشجار والنباتات والأزهار والحشرات ، وكان لذلك أثرُهُ فى نفسِهِ وفى فنّهِ ، إذْ ألْهمَهُ رَسْمَها ونَقْشَها فيما بعد ، كما أثَّرَتْ فيه عاطفتُه الدينيَّةُ سُلوكاً وولوعاً بالموسيقى ، وهى عاطفةٌ قويةٌ عند الزُّنوج عامّةً نشأَتْ ونَمَتْ تحت دافعِ اليأسِ فى عهدِ الاستعباد .

كان ذلك الصَّغيرُ جائعاً للمعرفةِ ولا من يُعَلِّمُهُ فى بيئته ، وكان يَغبِطُ مَن حولَه مِن البيضِ المتعلِّمين . فلمّا ترعرعَ أخذ بنفسه يَجْهَدُ فى سبيل المعرفةِ التى يَنْشِدُها قاضياً لياليَه بين الأنابير ومَخازنِ الدَّريسِ والعُشْبِ المجفَّفِ ، قائماً بأى عملٍ يتفق له ليستعين بأجره على قوته وعلى تعليمه بمدرسة ريفية . ومنها انتقل إلى التعليم الثانوى مستعيناً على نفقاته بما كان يتقاضاه أجراً على غسل الملابس ، وكانت حريةُ العبيد قد تَقَرَّرَتْ فى سنة ألف وثمانمائة وخمس وستّينَ فشبَّ غيرَ مقيَّدٍ ، ولو أنه كان مُعْدِماً ، وانتقلَ من خدمةِ مُعتقه إلى خِدمةِ نَفْسِهِ .
ثم رحَلَ إلى ولاية أيُوَا حيث فتَح مَغْسَلاً صغيراً ليستعين بدخلِهِ منه على الالتحاقِ بكلية سِمْسُن *Simpson College* واستمرّ على ذلك ثلاث سنواتٍ ، وبعدها التحقَ بكلية ولاية أيُوَا *Iowa State*

College فى بلدة إيمز متفرِّغاً للدراسات الزراعيةِ مدةَ أربع سنواتٍ ، وهناك نفعتْه خِبرتُه السابقةُ بالنباتاتِ والتُّربةِ ومعلوماتُه عنها . ومِنْ ثَمَّةَ هيَّأ نفسَه للعمل مع بوكر ت. وشنطن بمعهدِ تَسْكجى حيث شرعَ من « لا شيء » فى إعداد مَعملِهِ الزراعىّ وحقلِ التجاربِ المُلْحَقِ به وكانت مساحتُه ستةَ عشر فدّاناً، فبرع فى ذلك أيةَ براعةٍ وأدهشَ بحسن تَصَرُّفِهِ وواسع حيلته ، إذْ أَبَى أن تَقِفَ أيَّةُ عَقَبةٍ فى طريق مشروعه الجليل الذى أثمرَتْ فيه عبقريتُه وشَفَّتْ عن ذهنٍ خلاَّقٍ مِن الطّرازِ الأَوّلِ فى مَجالِ البُحوثِ العلميةِ الزّراعيةِ ، حتى كأنَّما هو ساحرٌ كيميائىٌّ ، وهو الذى بَدَأَ ببناء خاوٍ وبيدٍ خاويةٍ وبأرضٍ خاويةٍ رمليّةٍ فقيرةٍ ، فَعمِلَ المُعجزاتِ بأهون الأشياء لتأسيس مَعمله غيرَ مُحتقرٍ أدواتِ المطبخِ والزجاجاتِ القديمة والمحابر والمُلْقَى مِنْ قِطَعِ الخشبِ والحديدِ التى خَلَّصهاَ من أكوامِ النّفاياتِ ، وكان يَبعثُ بطَلَبته يوماً بعد آخر إلى المستنقعات والغاباتِ حاملينَ دِلاءهم لِيَجْلِبُوا إليه ما يَصلح تُربةً سطحيّةً وسماداً لأرض التجارِبِ المُلْحَقَةِ بِمَعْمَلِهِ .

بهذهِ العزيمةِ الجبّارةِ والإيمانِ العميق بدَأَ كارفر عملَه ، وفى قرارةِ نفسهِ أنّ كلَّ ما كان يَعْمَلُه إنما هو بوَحْيٍ إلهىّ لخير البشريّةِ . وكانت تجاريبُه الأُولى محصورةً فى تُربةِ ألباما الطّفليّةِ . فَعلّمَ المُزارعينَ

علميًا وعمليًا كيف يحسّنون التربة لتنتج لهم محصولاً أوفر من القطن ، وأثبتَ لهم ذلك بإنتاجه على حقلِ التجاربِ التابع لمعهده .

ولاحظَ عُبوديةَ الجنوبِ من الولايات المتحدة لمحصولٍ واحدٍ هو القطنُ ، فعملَ على إنتاج محاصيلَ أخرى مُربحةٍ . وأصبحَ ذلك الجنوبُ الذى كان مهدَّداً بالخراب يَملكُ الآنَ — إلى جانب القطن والتبغ — محصولَ الإيبُومْيا *Ipomea* (أىْ البطاطا الحلوةِ وشبيهٌ بها أو قرينٌ لها اليامُ *Yam*) ومحصولَ الفُول السُّودانى *Pea - Nut* كمصدرينِ عظيمينِ للثروةِ الزراعيةِ ، علاوة على ما تفرّعَ عليهما منْ صناعاتٍ خلقتْها ألمعيّتهُ . فمن الفول السودانى ابتدعَ نحو ثلاثمائة من المنتوجات النافعة من بينها ضرُوبٌ من الجُبْنِ والحلْوى ومسحوقٌ لإعدادِ القهوة فوراً ومخلّلاتٌ وزيوتٌ ومحاليلُ للحلاقةِ وأصباغٌ ودُهْنٌ وصابون وذَرُورٌ للوجهِ وشَمْبُو وحِبْرٌ للطباعةِ وشَحْمٌ للآلات ودقيقٌ وزيتٌ طبّىٌّ ولبنٌ ومُشمّع وورقٌ . ومن البطاطا ابتَدعَ أكثرَ من مائةِ تحضيرٍ هامٍّ مِنْ بينها النَّشاء ، وعجينةُ المكتباتُ والخلُّ ومَسانِدُ الأحذيةِ والحِبرُ والأصباغُ والدِّبْسُ والغِراء والسّمادُ . وكان اتجاهُ كارفر دائمًا إلى ما حوله من الموارد الطبيعيّةِ لابتداعِ صناعاتٍ جديدةٍ ، وكان يَبغضُ التبذيرَ والتلفَ ولا يُؤمنُ بوجودِ شىء يُسمّى نِفايَةً *(Waste)*

فصنعَ مثلاً من نشارة الخشب رخاماً ، وصنعَ من سِيقانِ الذُّرَةِ وسيقانِ القطن ونُشارة الخَشَبِ ألواحاً عازلة وقوالبَ للتبليط . وصنعَ من النباتات البرّية المُزْهرة نوعاً من الورق . وكان يَعتقدُ بأنّ أهل الريف يستطيعون أن يَعيشوا على ما ينمو حولَهم فى دائرةٍ لايتجاوزُ نِصْفُ قُطرِها مائةَ ياردةٍ . وليبُرهنَ ذلك جمعَ الأعشاب والأزهار المَحلّيةَ والفاكهةَ البرّيةَ والنباتاتِ المجاورةَ ، ومن مُعظمِ هـذا الخليط أنتجَ أطباقاً شَهيةً مُغذّيةً من بينها أنواعٌ للحساء والجُبْنِ والمَرماليدِ والشِّوَاء . وقد دوّنَ وَصَفاتِه لِطَهْيِ أو لإعدادِ هذه الأغذيةِ فى نشراتٍ وزّعَها فى طُولِ البلادِ وعَرْضِها مجّاناً ، ولم يكْتفِ بذلك بل ابتدعَ مَعْرضاً متنقلاً بين الفلاّحينَ كان بمثابةِ مَدرسة لهم وكان يَطوفُ مُحاضراً مُعَلِّماً فى تلك العربةِ التى كانَت أُولى المدارس المتنقلة مِنْ طرازها ، وهكذا كان مبتكراً فى جميع أعماله وليس أهوَنُها شأناً تجفيف الخضروات لحفظها .

كان الفنُّ هِوَايةَ كارفر ، ومع ذلك لم يَكُنْ لِيَغزِ لَهُ عن عِلْمِهِ أو لِيُنَحيَهُ عن فلسفتهِ العمليةِ ، فمن طَفْلِ ألباما صنعَ أصباغَه لِنَقْشِ صُوَرِهِ الفنيةِ ، كما أنَّ من هذا الطَّفْلِ صَنَع الدِّهانَ المُلوَّنَ للبيوتِ ومَسْحوقاً للوجهِ وصَلْصالاً وأصباغاً بلغ عددها ٥٣٦ من ٢٨ نباتاً فقط !

وتَعلَّقَ المخترعُ الشَّهيرُ طوماس إديسُن بوشِنطن كارفر ، فعرضَ عليه وظيفةً فى مَعملِه بمرتَّبٍ قدرُه مائة ألف دولارٍ سنوياً ، ولكنَّ كارفر اعتذرَ عن قَبُول هذا المَنصِب الهامّ لأنَّ المالَ لم يكن يَهُمُّه لشخصه، ولأنَّه آمن بأنَّ رسالتَه العلميةَ الإصلاحية يجب أن تستمرَّ فى المعهد الذى بدأ فيه و بين أبناء جِلدتِه ، دونَ أىّ نَظر لنفعِه الذّاتى . ولو أنَّه أراد ذلك النفع الشخصى لأَحْرَزَ أموالًا طائلةً ، فمن أهونِ مُحضَّراتِه الرائجة الجليلةِ الفائدةِ زيتُ الفُول السودانىّ الطبىّ المفيدُ فى شللِ الأطفالِ ، فقد وهبَه مِنْحَةً للطبِّ ، وأبَى تسجيلَه والانتفاعَ من ورائه ، كذلك أَبَى أيَّةَ هَدِيَّةٍ مِنْ أَيَّةِ هيئةٍ أو شركةٍ أو فردٍ مكافأةً على خدماتٍ أدّاها تبصيراً بمنفعةٍ أو كشفاً عن مرضٍ أو حَلّا لمعضلةٍ زراعيةٍ أو نحو ذلك .

ومِنْ ألطفِ ما يُرْوَى عنه أنه أعطَى وَصفةً لشركةٍ بولاية المسيسيبى لصناعةِ الرخامِ التركيبىّ من قشر الفول السودانى ، ولكن الشركة وجدتْ بعض الصعوبة فى تطبيقها فحاولت أن تستهوىَ كارفر لينضمَّ إليها ، ولكنه أبى ذلك ، فاضطُرَّتِ الشركةَ إلى نقل مصنَعِها إلى بلدة تَسْكِجى حتى تكون بقرب فتنتفع من إرشاده .

هذا هو العبقرىّ الذى ضربَ المثل بتجرُّده على حُبّه لأبناء جلدته بل للإنسانية عامةً ، والذى ترك معظمَ مرتبه المحدود يتكدّس فى إدارة

معهده إلَّا القليل الذى احتاج إليه لمعاشه البسيط فضلاً عن معاونة الطلبة الفقراء . وهذا هو المواطن المخلص الذى ظَفِرَ بنوْطِ روزفلت *The Roosevelt Medal* لتميّز عمله العلمىّ والذى اختارته الجمعية الملكية فى لندن زميلاً بها ، والذى أصدرت طوابع ونقودٌ أمريكية برسمه و باسمه ، والذى أُقيمتْ له التماثيل وأُلِّفت عنه الروايات والكتب والسينمائيات ، والذى وهب جميع ما ادَّخره باسمه لخدمة العلم ووهب عِلْمَه وسيرته هُدًى لأُولى الألباب أينما كانوا فكرمته الإنسانية قاطبة .

موسيقى الزنوج الشعبية

ترجعُ صلةُ العُنصرِ الزَّنجيِّ بالشعبِ الأمريكيِّ إلى قرون ، فهو شطرٌ من هذه الأمةِ ، ولابدَّ من دراسةِ موسيقى الزُّنوجِ عند دراسةِ مراحلِ التطوُّرِ للموسيقى الأمريكيَّةِ ؛ وليس ثمَّةَ أدنى شكٍّ فى أنَّ هذه الموسيقى حبيبةٌ إلى الشعبِ الأمريكيِّ لمزاياهَا الفنيَّة الخاصة ، فما هى هذه المزايا ؟

أولى هذه المزايا العاطفةُ الصادقةُ الجيَّاشةُ التى نبَعَتْ من قلوبِ طائفةٍ عانتْ فى بدايتها الاغترابَ والرقَّ . وشتَّانَ بين حالها حينئذ وبين حالها الآنَ فى هذا الجوِّ الديمقراطيِّ الشاملِ مستكملةً حقوقَها ، مقدَّرةَ المواهب ، بحيث نبغَ منها أعلامٌ فى العلمِ والأدبِ والفنِّ والسياسةِ ، وظَفِرُوا رجالاً ونساء بكلِّ تقديرٍ ومحبَّةٍ ، وبينهم نُجومٌ فى الموسيقى والغِناء . لهذا تغلغلتْ هذه الموسيقى فى صميم الحياةِ الأمريكيَّةِ ، وأثَّرَتْ بطابعها تأثيراً عميقاً فيها وفى موسيقى الجماهير .

وإذا كان التقديرُ الفنىُّ لها حديثاً نسبيًّا ، فإنه لم يَفُتْ مثلَ طوماس جفرسن *Thomas Jefferson* أن ينوِّهَ تنويهاً خاصاً بمواهب الزنوج الموسيقية الفطرية فى مذكراته عن فرجينيا «*Notes on Virginia*»

سنة ١٧٨٤ . وأخذَ الاهتمامُ بموسيقاهم يزداد تدريجياً بعد الحرب الأهلية وكان (لجامعة فسك) *Fisk University* الفضلُ الأولُ فى تنشئةِ المغنّينَ الزُّنوج تنشئة أصولية إلى جانب تعليمها العامّ لهؤلاء العبيد المحرَّرين ، فطافَ أولئك المغنّون فى البلادِ وكانُوا خيرَ دعايةٍ لفنِّهم ، وما كاد القرن الماضى يُؤْذنُ بالانصرافِ حتى كان هناك ملحّنون بارعون يقتبسون من موسيقى الزنوج ، وكان على رأسهم الفنّانُ البوهيمىُّ الأصلِ دفوراك *Dvorak* فى سمفونيّته « العالَمِ الجديدِ — *New World* » .

بمثل هذه الموسيقى التى أشْرَقتْ منها رُوحُ ذلك الفَنِّ استطاعَ دفوراك *Dvorak* أن يكسبَ لموسيقى الزُّنوجِ الشعبيةِ أصدقاء عديدين احترموها ودعَوْا إلى الاهتمام بها ، فأخذت الحفلاتُ الموسيقيةُ الخاصةُ بها تنشأُ ثم تتكاثر حتى عمّتْ البلادَ ، كما أخذتْ تلك الحفلاتُ تتنوّعُ والموسيقى ذاتُها تتطوّر وتتهذَّبُ جيلاً بعد جيل .

والمظنون أنَّ هذه الموسيقى جاءتْ أولَ ما جاءت إلى أمريكا تحمِلُها أغانى العبيد الزُّنوج من إفريقيا . فكانوا يلجأون إليها لجُوءهم إلى الدِّين عزاءً لهم وتنفيساً عن كَرْبِهم . وتدلُّ الأبحاثُ العلميـةُ على أنَّ هـذه الموسيقى تمتُّ بصلاتٍ فى عناصرِها إلى ضروبٍ من الموسيقى الساميّة .

وعند ما تَعَلَّمَ الزُّنوجُ اللُّغةَ الإنجليزيةَ وتشرَّبوا المسيحيةَ طوَّعوا أغانيَهُمْ وموسيقاهم لها .

وكانت مِنْ مزايا هذه الموسيقى مقطوعاتُها الرُّوحانيةُ ، وإنْ كانت هـذه « الروحانياتُ » *Spirituals* متأثرة فى أصلها بأناشيد الإنجيل وترانيمه . وكثيرٌ من هذه « الروحانيات » كان يُرتجل ارتجالاً فى الاجتماعات الدينية على ما وُصِفَ فى مجلة *Musical Quarterly* بعدد يناير سنة ١٩١٩ . وفى هذه الترانيم الـكثير من اللوعة واللهفة واللجوء إلى غوث السيد المسيح ، إلى جانب ما فيها من أوهام دينية . وبعضُ هذه الترانيم حزينٌ وغيرُه مِلؤهُ البهجةُ . ومن ثمةَ كانت هذه الأغانى الرُّوحانية منوَّعةَ الضروب .

وقد ظهر بين الزُّنوجِ مؤلِّفون موسيقيون كانوا يطوفون بأغانيهم وموسيقاهم كما كان يطوف « الشعراء التروبادوريون » فى جنوبىّ فرنسا وشمالىّ إيطاليا وغيرها فى القرون الوسطى . وبين أشهر مغنِّيهم المؤلِّفين القُدَامى كان *«Singing» Johnson* ، وبين أشهر مغنِّيهم الجوَّالينَ كان *«Left Wing» Gordon* .

وهناك طرازٌ من هذه الأغانى الدينيّة الوجدانيّة يُسَمَّى « الهتاف — *Shout* » يجمعُ بين رقص الجماعةِ والإيقاع . كما أنَّ هناك ألواناً من

الأغانى الوجدانية كان يتأسّى بها الزنوجُ فى المزارع وفى مختلف الأعمال . وهذه الأغانى تفيض بالإشفاقِ على أنفسهم والرثاء لها ، وقد تُبدى موسيقاها الفرحةَ التى تستر خلفها الوجدَ والهمّ ، فلُبُّها الحزنُ الدفينُ ولذلك سُمِّيَتْ ***The Blues*** . ويَرجعُ إلى ***W. C. Handy*** هاندى الفضل فى شيوع هذا الطراز من الموسيقى المستمدّ من إشفاق الزنوج على حظوظهم ورثائهم لأنفسهم ، ومجموعتُه ***Memphis Blues*** التى صدرت فى سنة ١٩١٢ أشهر من أن تعرّف . وقد أقبل الشعبُ جملةً على هذه الموسيقى فلم تقتصر على الزنوج فحسب .

وصفوةُ القولِ إنَّ موسيقى الزنوج بتطوُّرها أصبحت من صميم الفنِّ الأمريكىّ . وهى موسيقى جذَّابةٌ صادقةُ التعبير عن آلامهم وآمالهم فى مراحل تطوّرهم ، وفيها ما فيها من الأنين والعويل والرثاء لأنفسهم والتضرُّع الدينىّ والبهجة المصطنعة التى تستر لهفتَهم ، كما أنَّ فيها من موحياتِ الاستسلامِ والرضَى بالحظ والتأميل فى العدل الإلهى ما فيها . وهى بعد ذلك فى مجموعها تاريخٌ وجدانىٌّ لِتطوُّرِ الزُّنوجِ من عهد الرقِّ إلى عهد الحرية ، ولذلك تأثر منها الشعبُ كما تأثر بها وأحبَّها وتشرّبها .

المراجع REFERENCES

(١) *Negro Music at Birth* في مجلة *Musical Querterly* يناير سنة ١٩١٩ .

(٢) *The Negro and His Music* تأليف *Alain Locke* سنة ١٩٣٦ .

(٣) *Negro Spirituals* تأليف *Harry T. Burleigh* سنة ١٩٢١ .

(٤) *Slave Songs of the Uinted States* تأليف *William Allen Francis* الطبعة الأولى سنة ١٨٦٧ — الطبعة الثانية سنة ١٩٢٩ .

(٥) *Afro — American Folk Songs* تأليف *Henry E. Krehbicl* سنة ١٩١٤ .

(٦) *American Negro Songs* تأليف *Gohn Wesley Work* سنة ١٩٤٠ .

(٧) *The Negro Singers' Own Book* نشرته شركة *Turme & Fisher* في فيلادلفيا سنة ١٨٦٤ .

(٨) *The Negro in Literature and Art in the United States* تأليف *Benjamin Brawley* سنة ١٩٢٩ .

مجموعة شومبرج

THE SCHOMBURG COLLECTION

قال صاحبي : أُرِيدُ أن تَرَى كتاباً من أنْدَر كُتُبِ العالَمِ ، بل كَنْزاً من أعَزِّ الكُنوزِ الأدبية فى صميم نيويورك وهو فى الوقت ذاته رمزٌ للَوْنٍ مِنْ أَلْوَان الحضارةِ الأمريكية التى تُعْنَى بالإذاعة عنها تبياناً للاتجاهاتِ الإنسانية فى هذه البلاد الحرة ؟ قلتُ : لا أحبَّ لدىَّ من عَرْضِكَ هذا . فاصطحبَنى بقطار النَّفق إلى حَىٍّ هارلم — الحى الذى تقطنه كثرة من الزنوج — وثمة عند الشارع المائة والخامس والثلاثين اقتادنى إلى مَبْنًى جميل احتوَى المكتبةَ المحلّيةَ العامّةَ التى تتميَّزُ (بمجموعة شومبرج) الشهيرة التى سَمِعْتُ عنها كثيراً ولم تُتَحْ لى الفرصةُ من قبلُ لمشاهدتها . ولن أتحدَّثَ عن جاذبية هذا البناء وعن حُسنِ تنسيق المكتبة العامةِ ، فإن عناية أمريكا بمؤسساتها العامة مشهورةٌ ، كما أنَّ مكتباتها مَضْرَبُ المثلِ فى العالم لحسنِ تنظيمها وطابَعِها التقدُّمى . وانما يَعْنِينى التنويهُ بالرُّوح الأمريكيةِ الوفيَّةِ لجميع عناصر الشَّعْب ، فإنَّ مجموعة شومبرج تمثل العنايةَ الصادقةَ بثقافةِ الزنوج ، وهى أكبرُ مؤسَّسَةٍ من طِرازِها فى العالم انتظمتْ نواة لها المؤلَّفاتِ النادرة

والتُّحَفَ الغالية التى جمعها آرثر ألفونسو شومبرج *Arthur Alfonso Schomburg* من آثار الزنوج أو مما كتبه أو صَوَّرَهُ أو صنَعَهُ الغيرُ عنهم ، وكانت أهْدَتْها مؤسسةُ كارنيجى بنيويورك *The Carnegie Corporation of New York* فى سنة ١٩٢٦ إلى مكتبة نيويورك العامة *The New Yook Public Library* ثم نُقِلَتْ هذه المجموعة إلى المكتبةِ الفرعيةِ السَّالفةِ الذكرِ فى حىّ هارلم وهى التى يرجعُ تأسيسُها إلى سنة ١٩٠٥ .

واسترعى انتباهى وشغلَ بصرى ما رأيتُه أمامى مِنْ مؤَلَّفاتٍ عديدةٍ ومجلاتٍ مُنَوَّعةٍ مُعاصِرَةٍ عن الزُّنوجِ فى إفريقيا وأوربا وأمريكا وجُزُر الهندِ الغربيَّةِ ، وتصانيف جمَّةٍ بين أدبيةٍ وتاريخية تتناول ثقافةَ الزنوج ، ومن صُورٍ ولوحات فنيَّةٍ قيمة ، وتماثيل وآثارٍ فنيةٍ إفريقية بديعة ، وأفلام مصغَّرة لصُحُف الزنوج الأمريكيين منذ سنة ١٨٢٧ . وهذه الأفلامُ المصغَّرَةُ لِلصُّحفِ تُمكِنُ قراءتُها بواسطةِ آلةٍ خاصَّةٍ مما يجعلُ الاطِّلاع على الصحافة الزنجية فى أكثر من قرنٍ أمراً ميسوراً للجمهور . وهكذا يرى الملاحظُ فى (مجموعةشومبرج) مادّةً غنيَّة خصبةً للمحققين الباحثين ، وللمؤلفين المؤرّخين ، ولدارسى الآثار الفنِّيةِ المنوَّعةِ ولكلِّ ما يَمتُّ بصلةٍ لأدبِ الزُّنوجِ وتاريخهم وثقافتهم

وفى طليعتها رُوحُهم الفنيةُ فى الموسيقى والرسم والتصوير والنحتِ .

فقلتُ لصاحبى : لأمريكا أن تفتخرَ حقًّا بهذا العملِ العظيمِ فى رُوحِهِ ، كما لها أن تَعتزَّ بهذا الكَنزِ النفيسِ فى قِيمتهِ ماديًّا وعلمياً وفنياً .

كان شومبرج نفسُه زنجىَّ الأرومةِ ، وقد نشأ فى پورْتُو ريكا حيث وُلدَ سنة ١٨٧٤ ، وقد أدَّى به بَحْثُهُ الشخصىُّ إلى ثلاثِ نتائج رئيسيةٍ :

أوّلها : أنَّ الزنجىَّ كان خلالَ العصور وإبَّانَ المنازعات عاملاً نشيطاً ، وكثيراً ما كان رائداً فى الكفاح من أجل حرّيته وتَقَدُّمه .

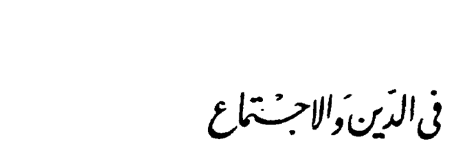
وثانيها : قيامُ نوابغ وعباقرةٍ بين الزُّنوج لم يُنصفُوا ولم يُنْصَفْ جنسُهم بإهمالِ نسبتهم إليه .

وثالثُها : أنَّ الأصولَ أو الأروماتِ الجنسيَّةَ البعيدةَ للزنوج هى مَفخرةٌ لجنسهم ، كما أنها ذاتُ صلةٍ وثيقةٍ ببَدْء الثقافةِ الانسانيةِ وتطوُّرِهَا . وما اكتُشِفَ خارجَ أمريكا من وثائقَ وآثار — أكثرُ مِمَّا اكتُشِفَ داخلها — لما يؤيّد النتائجَ التى انتهى إليها شُومبرج (الذى كان المديرَ الأولَ لهذا المتحف الفذّ ذى الصبغةِ الأُمميَّة) ، وإنْ كان بين التُّحفِ الأمريكيةِ الطرائفُ الأدبيةُ والتاريخيةُ والفنّيةُ الكثيرةُ . وليستْ مِنْ أيسرها قَدْراً أشعارُ جوپيتر هامُّون *Jupiter Hammon* شاعرِ الزّنوج الأمريكىِّ الأوّلِ ، ومذكرات إيرا ألْدردج

Ira Aldridge الممثلِ الزنجىِّ الذى اشتهرَ بأوروبا فى القرن التاسع عشر بتمثيليّاته لأدوار شيكسپير .

و وجدتُ الوقتَ يكاد يَطيرُ منى بين إعجابى بآثار عديدة وقد شغلتْنى من بينها اللوحاتُ الفنّيةُ والتماثيلُ والطرائفُ الإفريقيةُ زمناً غير قصير ، فقلتُ لصاحبى : لقد أنستْنى هذه النفائسُ ذلكَ الكتابَ النادرَ أو الكنزَ العزيزَ الذى استهويْتَنى من أجله لأزُورَ هذهِ المؤسّسةَ ، فضحكَ وقال : هذا ما كنتُ أنتظرُه ، فتعالَ معى إلى مديرة المتحف ! وفى لَطَفٍ و إيناس أطلعتْنا المديرةُ النّابهةُ على النسخةِ الأثريةِ من ديوان جُوان لاتينو *Juan Latino* الزنجىّ الافريقىِّ والشّاعرِ النابغةِ الذى كان ينظم شعرَه باللّاتينيةِ (وقد ظهر ديوانُه بمدينة غرناطةَ سنة ١٥٧٣) ولا يقلّ عن ديوانه هذا قدراً كتابهُ عن الاسكوريال فى سنة ١٥٧٦ . وكان جُوان لاتينو أستاذاً للشّعر بجامعة غرناطة فى عهد فيليب الخامس ، وكان يُعَدُّ أعظمَ أديبٍ فى اللاتينية بأسبانيا فى عهده وظهرتْ آثارُه قبلَ أعمال شيكسپير بعشرينَ عاماً .

وَترَكتُ هذه المؤسّسَةَ الرائعةَ مَسْحُوراً بما فيها ، ولكنّى كنتُ ثملاً بفرحةٍ تتجدّدُ لمشاهدتى هذا المظهرَ الحىّ للحضارة الأمريكية الإنسانيةَ الذى أسْهَمَ فى إقامتهِ ورعايتهِ البيضُ والسُّودُ على السّواء والذى يحْـتَفِى به الشّعبُ عامةً فى غبطةٍ أكيدةٍ .


في الدين والاجتماع

الدين في أمريكا

إنّ سياحاتنا الماضيةَ فى أقطار شتّى واهتمامَنا بِتَتَبُّع ضُروب الحياة فيها وألوان حضاراتها واختباراتنا الشخصية جعَلَتْنا نؤمن بنفاسة المدنيّة الأمريكية وبأنّ الدين ليس عنصراً ثانوياً فيها . ولكنّ الدين فى أمريكا ليس نظرياتٍ وشكلياتٍ بل هو حياةٌ عمليةٌ هى أظهر ما تكون فى الإحسان المنظم وفى التعاطف الإنسانى ، وها هى أمريكا تُنْجِبُ المؤتمر الدولى للديانات *World Congress of Religions* كهيئة عالميةٍ مستقرة فيها . وإن من يزعم أن عظمة أمريكا تقوم على الماديات فحسب قد فاته الشىء الكثيرُ من محاسن حضارتها الباهرة التى هى حضارة علمية إنسانية فى الصميم جديرة بأن تُحْتَذَى شرقاً وغرباً على السواء ، إذ أنها غاية مابلغه العقل البشرى من المعرفة ومن تطبيق المعرفة . وأية عيوب تعلق بهذه الحضارة فى هذا الأوان أو فى سواه لا تمسّ جوهرها بأىّ حال .

يبلغ عدد الأعضاء فى الكنائس بالولايات المتحدة الأمريكية اليوم أكثر من ستة وسبعين مليوناً تضاف إليهم ملايين عدة من الأطفال الذين يحضرون مدارس الأحد . ويقوم الجمهور الأمريكىُّ طواعية

بالمساعدات المالية للكنائس ، إذ أن الحكومة الأمريكية لا تساندها بأىّ مالٍ مذ كان الدستور الأمريكى ينص على فصل الدين عن الدولة . وتوجد بالولايات المتحدة مائتا ألف وأربعة آلاف وخمسون ألف كنيسة كما توجد بها مائتان وستة وخمسون مذهباً أو جماعة دينية ، إذ أنّ دياناتٍ ومذاهبَ عِدّةً لشعوب تكاد لا تحصر تسرّبتْ إلى هذه البلاد واندمجت فى مجتمعاتها . و إلى جانب العبادة تقوم الكنائسُ الأمريكية بوظائف عدة على غاية من الأهمية ، فهى مراكز ذات اعتبار كبير للنشاط الاجتماعىّ ، ولها برامج للرجال والنساء ، وللشباب والأطفال ، لأجل الدراسة والخدمة ، ولأجل بث روح الزمالة ولأجل الرياضة والتسلية .

وينص الدستور الأمريكىّ على احترام حرية العبادة ، بل ورد فى التعديل الأول لهذا الدستور أنه لا يحقّ للكونجرس إصدار قانون لخلق ديانة أو لمنع الممارسة الحرة لها . ومثل هذا التحديد قائم فى دساتير جميع الولايات الأمريكية علاوة على الآراء القانونية التى يعتمد عليها والمتوارثة جيلاً عن جيل .

وتُعَلَّمُ العُلومُ الدِّينيةُ فى عددٍ من كبرياتِ الجامعاتِ الأمريكية وفى كثير من المعاهد الدينية . ويبلغ عدد طلّاب الدّينِ الُجدَدِ سنوياً

زهاء خمسة عشر ألفاً بينهم ألف فتاة ، هذا علاوة على الدراسات العديدة في الكنائس المختلفة . وفي نحو ألفي مجتمع أمريكي يُسْمَحُ لطلبة المدارس بإجازة لساعات معينة كل أسبوع فيحضروا من تلقاء أنفسهم الدروس الدينية خارجها .

وما يزال (الإنجيل) المقدّس أكثر الكتب رواجاً في أمريكا ، وقد دلّ إحصاء حديث على أن ما بيع من نُسخه في أمريكا يبلغ تسعةَ ملايين ومائتيْ ألف وثمانية آلاف وأربعين ألف نسخة في عامٍ واحدٍ .

ومن الرُّوح الدينيّةِ التي احتضنت العِلْمَ والرُّوح الانسانيةَ نشَأَ وتأصَّلَ حُبُّ الإحسانِ المنظَّم أو على الأصح العدالة الاجتماعية المنظَّمة في أمريكا إلى درجة جدّ باهرة ، فكانت الجوابَ الحاسم لكل من يزعم أن زعيمةَ العالم الجديد إن لم نقل العالم بأسره أمة انغمست في الماديات ونسيت الروحانيات أو أهملتْها ، في حين أنّها القدوةُ الحقّة للتوارث الكامل الخليقِ بالاعتبار وبالمحاكاة بين الأمم الناهضة .

وإن من تحدثه نفسه بإصغار هذه العظمة بدل الاهتمام بدرسها والانتفاع من دروسها إما يخدع نفسه ويحاول أن يخادع غيره ، وهذا لا يضرّ أمريكا مثقال ذرة ، وإما يضرّ الشعوب التي لا تزال تعيش في القرون الوسطى ، وكلما واجهت نور الهداية أغمضتْ عيونها أو أرغمها المتزعمون

على صنع ذلك فيفوّتون عليها فرَص اليقظة والتقـدم . وللشيوعيين الحاكمين بأمرهم نصيبٌ كبير فى هذا التّضليل الذى يبثّونه فى الشعوب التى تعانى مستوًى وضيعاً فى المعيشة والتى أنهكها الاستعمار الطويل . ولـكنها لم تعد تنطلى على الشعوب العربية وفى مقدمتها مصر التى استعادت ثقتها بأمريكا وإيمانها بحضارتها وبنبل غايتها وأخذت تُعْنَى بدراسة المقومات الصحيحة لهذه الحضارة لتقتبس من لبابها النفيس .

أسبوع الأخوة

في السابع عشرَ من فبراير في كلّ عامٍ تدوي المعابدُ الأمريكيةُ بكلماتِ بولص الرسول أو بما بمعناها : « لقد خلقَ اللهُ جميعَ الشعوبِ من دمٍ واحدٍ . . . . لأننا جميعا أبناؤه » .

يُنْشِدُ هذه الكلماتِ النورانيةَ ملايينُ المسيحيّين في كنائسهم ، ويرتّل مثيلاتِها غيرُهم من جميع الأجناسِ والألوانِ والأديانِ التي تؤلّف الشعبَ الأمريكيّ ، وتستمرُّ مظاهرُ حفاوتهم بهذه الرُّوح الشريفة بصورةٍ خاصّةٍ أسبوعاً كاملاً يُسمّى « أسبوعَ الأخوّةِ » برعايةِ رئيسِ الجمهورية الأمريكية ذاتِهِ . ويَسْبقُ هذا الموسمَ السنويَّ بأيامٍ معدودةٍ ميلادُ الإنسانيّ العظيم أبراهام لنكلن الذي جاهدَ ووُفّقَ لتحرير العبيد ، وأضاء الشّعلةَ التي يُسْتَهْدَى بها في أمريكا وفي أقطارٍ أخرى عديدةٍ لتدعيمِ الحرّيةِ والأخوّةِ والمساواةِ ، فيَستلهمُهُ أعلامُ الأمّة في جميع مَرافقِها ومَناحيها ، ويؤكّدون مجدّدين عُهودَهم بمحاربةِ ألوانِ التعصّبِ الجنسيّ والدينيّ واللونيّ ، ويَدْعُونَ أفرادَ الشّعْبِ إلى التعاونِ على استئصال أيّةِ جُذورٍ باقية تؤذي ذلك الميثاقَ الحرّ النبيلَ . إنّ روح ابراهام لنكلن هي روحُ الأمة الأمريكية التي بعثَها

من جديدٍ بعثاً سوياً ، و « أسبوعُ الأُخوّة » هو ترجمانٌ لتلك الرُّوح ، وكلُّ ما نافاها غريبٌ عن هـذه الأمةِ تُحاربه وتقوّمُه ولو كان من العادات الموروثة . هكذا تصنعُ الحكومةُ الفدراليةُ وتأتمُّ بها تباعاً حكوماتُ الولايات والمعاهدُ العلميَّةُ ونقاباتُ العمال ، ومَنْ يتخلّف مؤقتاً بتأثير تقاليدَ عتيقةٍ لا يفوتُه آجلاً أن يَلْحَقَ بقافلةِ التجانُسِ والوِئامِ والتقدُّمِ ؛ و بين الشرائع المادية إلى ذلك فى ظلّ الدستور « قوانينُ تعاطى العملِ المُنْصِفِ — *Fair Employment Practice Laws* » .

هذا المظْهَرُ من الحضارة الأمريكية وَليدُ تكوين الشعب الأمريكى من أجناسٍ وعقائدَ شتّى ، جميعُها تَدِينُ بالولاء للولايات المتحدة الأمريكية ، ومع ذلك جميعُها تُشَجَّع على البِرّ بأوطانها الأولى أو بِمَنَابتِ أرومتِها ويُرْتَقَبُ منها أن تَعْمَلَ على توثيقِ وشائج الودِّ والتعاونِ بين تلك الأوطان و بين العمِّ سام . وليس هذا المظهر الأممىّ للحضارة الأمريكية بالجديد فهو أقدم من عُصبةِ الأمم ومن الأمم المتحدة .

وفى هذا العامِ (١٩٥٢) مرّةً أخرى يُعنى « معهد الأمم المتحدة *United Nations Institute* » التابع لجامعة نيويورك بسلسلة من المباحثاتِ تقعُ فى أسبوع الأخوّةُ وتنسجم مع روحه وتتناول جميع العالم .

ولمّا كنتُ قد دُعِيتُ للكلام عن مصر خاصةً ، فيكفى للتدليل على

هـذه العنايةِ الطيبة أن نذكر طَرْفاً من الأسئلة المطروحة والمطلوب الإجابة عنها بصراحة حباً فى توثيقِ حسنِ التفاهمِ ما بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية .

السؤال الأولُ : إذا كان على المدارس الأمريكية أن تحاول إفهام الشبابِ أحوالَ الشرقِ الأدنى ، فما الذى يجب أن يعرفوه عن شعب مصر وعن ماضيه وديانته ومستواه الثقافى وموارده الاقتصادية ؟

وللجواب عن هذا السؤال الجامع نذكر أنَّ ماضى مصر الذى تتلاقى فيه جملةُ حضارات لا ينبغى أن تكون المعرفةُ به محصورةً فى تواريخ وفتوحات وغارات قلَّما تفيد فى تثقيف الأذهان وتوسيع الاطّلاع ، وإنما يجب أن تُعْنَى أولَ ما تُعْنَى بتراث مصر القديمة فى الفنون والآداب والطبّ والعلوم والشرائع وبإسهامها فى خدمة المسيحية والإسلام على غرار مايتجلَّى فى مثل كتابَىْ *The Legacy of Egypt* «تراث مصر» تحرير جلانفيل *Glanville* و *The Legacy of Islam* «تراث الإسلام» تحرير أرنولد *Arnold* وجويلّوم *Guilloume* فضلاً عن تاريخ الكنيسة القبطيـة *History of the Coptic Church* لبطلر *Butler* . ووزارةُ المعارف المصرية تُعنى بإصـــدار وثائق شتَّى ما بين قديمةٍ وحديثةٍ ، وكذلك تُعنى وزارة التجارة والصناعة المصرية ، ووزارة الصحة المصرية ،

وكلّها تشمل البياناتِ الوفيرةَ التى تدْعَمُها الأرقامُ عن تطوُّر الشعب المصريّ من أقدم الأزمنة فى مضمار المدنية ، وما أصابه من صعود وهبوط تبعاً لحريته واستقلاله وترعرعه فى ظلهما أو العكس .

أمّا السؤال الثانى : ما الذى يجب أن يُعْرَفَ عن آمالهم ومشاكلهم ومستقبلهم ؟

وللجواب عن هذا السؤال نذكر أنّ تلك الوثائقَ التى أشرنا إليها ، فضلاً عن مجلاتِ مصر الثقافيةِ والفنية والعلمية والأدبية لَجِدُّ مُعبّرةٍ ومُجيبةٍ عن هذا السؤال . إنّ مصرَ الحديثة بنتُ عوامل متعدّدةٍ خاصة من تاريخيةٍ واجتماعيةٍ وسياسيةٍ واقتصاديةٍ ، والعقليةُ المصريةُ تبعاً لذلك تختلفُ عن عقلياتِ شعوبٍ أخرى فى الشرق الأدنى ، كما تختلف مشاكلُهم إلى حدٍّ معيَّن ، وإن اتَّفَقَتْ آمالُها فى إحراز استقلالِها الأتمِّ حتى تعملَ فى حِماه وفى جَوِّهِ الطَّلْقِ لبلوغ نهضةٍ أكملَ تنسجمُ وتاريخها المجيد .

وبديهىٌّ أنه لا يُنتظر أن تُشحنَ أذهانُ الطلبة بمعلومات وأرقام متعدّدة ، وإنما المهمُّ لخيرهم أن يُعطوا اللُّبابَ بطريقةٍ فنيةٍ مشوّقةٍ كما تصنع «المجلةُ الجغرافيةُ الوطنيةُ *The National Geographic Magazine* » نحوَ شعوبِ الأرضِ جميعها ، وكما صَنَعَتْ مجلة « هوليدى *Holiday* »

فى عرضها الشائق عن مصر بعدد ديسمبر سنةَ ألفٍ وتسعمائةٍ وإحدى وخمسين ، وإنما يكون الاطّلاعُ الأَوْفَى للمؤلّفين وللمدرّسين ، وعلى هؤلاء أن يزوّدوا الطلبةَ بالكتُبِ الوفيرةِ الصُّوَرِ الجامعةِ للحقائقِ الناصعةِ والمُشْبَعَةِ بروحِ العطفِ وبالرّغبةِ فى خلق حُسن التفاهم بين الشعوب . ولا ريب أنّ مما يؤدّى إلى ذلك ، بدل حفظ التواريخ الجافّة عن حروبٍ ومنازعاتٍ ، أن يعرف الطلبة مثلاً شيئاً عن سيرة أخناتون وتعاليمه العظيمة وخدَماته للسلام . وما يُقال عن مصر يقال عن غيرها من الشعوب ، إذ المهمُّ أن تُذاعَ الفضائلُ والحسناتُ والحقائقُ الملهِمة .

وفى كل ما تقدَّمَ ذكرُه ما يتمشَّى مع « أسبوعِ الأُخوّة » ومع روح الحضارة الأمريكية فى كلّ وقتٍ .

الأساس الخلقي والديني للمجتمع الأمريكي

تحتوى وثيقةُ إعلانِ الاستقلالِ الأمريكيّ على نصٍ صريحٍ بأنّ جميعَ النّاسِ وُلدوا مُتساوينَ ، وأنّ خالقهم وهبَهم حُقوقاً ثابتة . وهذا المبدأ بلا ريب يدعّمه شعورٌ دينيٌّ قويٌّ قبل أن تدعّمَهَ أيةُ فكرةٍ سياسيةٍ كتلك التى أنبتَتْها الثورةُ الفَرنسيّةُ وانتهتْ فى تطرّفها إلى الماركسية. إنّ الفكرة الأورو بية قوامُها تعزيز المساواةِ قبل تعزيز الحرية ، وأمّا الفكرةُ الأمريكيةُ فعلى النقيض تحفل بالحرية أولاً وأخيراً وتضعُها فى مرتبة أعلى من المساواة . و بناء على المذهب الأمريكى تخضعُ الحكومة للقانون وتحاط حرية الفرد بضمانات متعدّدة مثل تلك المدوّنة فى لائحةِ الحقوقِ *Bill of Rights* وهى الموادُّ العشرُ الأولى المعدّلة من الدستور الأمريكى . ويلوح أنّ هذه الفكرةَ الدينيةَ نبعتْ من شعور المهاجرين الأوّلين المدعوّين « الطهريّين الديمقراطيين *The Democratic Puritans* » فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أولئك الذين آمنوا بأنّ الأفراد المواطنين مسئولون أمامَ اللهِ عن طبيعة الدولة . و بناء على ذلك ليسوا أحراراً فى نقل المسئوليات إلى رؤسائهم الاجتماعيين ، ولا حتى إلى الدولة بحجة الحرصِ على مبدأ المساواة . إنّ المساواةَ المنصوصَ عليها

فى وثيقةِ إعلانِ الاستقلال الأمريكى هى المساواةُ فى الفُرَص والمسئوليات وهما هبةُ الله التى يُطالبُ بحسابٍ عنها ولا يقبل نقلها إلى أىّ شخصٍ آخر أو أيّةِ هيئةٍ أخرى . وهذه الفكرةُ الدينيةُ الإنسانيةُ هى وليدةُ النزاع الدينى بين رجال من أمثال اللورد بلطيمور، وردجر وليمز، ووليم پن فى انجلترا . لقد كانت تعبيراً عن إيمانهم بأنّه ما من مجتمع يمكن أن يستمرّ بغير التسامح الدّينى أى بدون أن يحمل كلُّ شخصٍ عاهةَ الآخر على حدّ تعبير القديس بولص . وهذه الفكرةُ ذاتُها عَبَّرَ عنها لنكلن فى خطابه التدشينى الثانى كما عَبَّر عنها إمرصن فى خطابهِ « إلى الشابّ الأمريكى » *Address to the Young American* ، والنصّ على أنّ جميع الناس وُلدوا متساوين هو تسويغٌ ميتافيزيقىٌّ — على حَدّ تعبير المفكِّر الأمريكى جالانتيير *Galantiere* —[*] للعقيدةِ الأمريكيةِ فى القيمةِ الفريدةِ للفردِ الانسانىِّ ، وأننا ما لم نعتبر الانسانَ من صنع اللهِ وقد بَثَّ فيه اللهُ ألَقاً مُبهماً أو شرارةً خفيَّةً فليس ثمّةَ سببٌ لاحترامِ أىِّ إنسانٍ إلّا بمقدارِ احترامِنا لعملهِ فقط .

لقد كانت أمريكا فى سنة ١٧٧٦ حينما أعلنت استقلالَها خليطاً من

(*) *The Moral and Religious Basis of the American Society* وهى خلاصة مباحثات المؤتمر الأول المائدة المستديرة الأمريكية برعاية *The Advertising Council , Inc.*

أقليّاتٍ منوّعةٍ متباينةِ العقائدِ وإنما يجمعُها حُبُّ الحرّيةِ المقرونُ باحترامِ الشخصيةِ الإنسانيةِ احتراماً دينياً فى روحه ، وهذا ما تجلّى فى وثيقةِ إعلانِ الاستقلالِ الأمريكىّ ، وإنها لمرآةٌ للحياة الأمريكية فى ذلك الحين (سنة ١٧٧٦) . لقد كانت حياةً قوامها الإيمان بحرية الإنسان منذ ولادته ، وأنه من أصلٍ إلهىٍّ وليس مَدَرَةً . لذلك لم يعتبر الأمريكيون القانون العلمانىّ أعلى قانونٍ لهم ، ولم يؤمنوا بوجود طبقةٍ بينهم يصدر عنها الحكامُ ، بل آمنوا فقط بأنّ المرء يبلغ من النفوذ ما تؤهّله له جهودُه ، وكان المجتمع الأمريكى متحركاً دائما ليس فيه أىُّ معنًى مِنْ معانى الطبقات . إنه مجتمعٌ يُؤمنُ بالمساواة التامّةِ بين الأفراد فى نظر الخالق ، وإذن فهم أهلٌ للمساواة فى أشياء عدّة ، وهكذا تكون الديمقراطية الأمريكيةُ ذاتَ أساسٍ دينىٍّ عميقٍ ، لأنها وليدةُ الشعور بالسلوك الدينى القويم . وبديهىٌّ أن الناس ليسوا متساوين فى نشأتهم من النواحى البيولوجية والاجتماعية والذهنية والروحية ، وإنما الدين هو الذى يجعلهم متساوين إذا كان ديناً إنسانيًا عامًا كما نرى فى المسيحية والإسلام حيث يُعَدُّ جميع الناس أبناء الله وصورتَه . وحتى جون ديوى *Gohn Dewey* الذى تُعَدُّ فلسفتُه الخلقيةُ علمانيةً محضةً كتبَ ما معناه :

« إنّ القيمَ التى أومنُ بها لا تكاد تُدركُ خارجَ مجتمعٍ أو ثقافةٍ تُغذّيها

العقيدةُ المسيحية منـذ قرون » . والحقيقةُ أن الفلاسفةَ الإنسانيين العلمانيين يعيشون على رأس المـال الدينى لأجدادهم الذين يستمرّون فى استغلاله دون أن يضيفوا إليه ، و يستنزفونه دون تعو يض فى كثيرٍ من الحالات على الأقلّ . ومع ذلك لا ننـكر أنه يوجد فى أمريكا كثيرون لا يزاولون المسيحية عملياً ومع ذلك يُؤمنونَ كلّ الإيمان بالمساواة ، وهناك عددٌ من المسيحيّينَ الحريصينَ على دينهم لا يذهبون هذا المذهبَ كما صنع أجداد لهم من قبل بدفاعهم عن الرقّ فى سنة ١٨٦١ ، ولـكنّ عددَ هؤلاء آخذٌ حتما فى التناقُصِ بتأثير الحضارة الإنسانية العلمية من ناحية و بتأثير التطوُّر الدينى الحرّ من ناحية أخرى . وهـذا التأثيرُ المزدوجُ يَغلب عليه الطابعُ الدينىُّ المتّزنُ المتسامحُ المستنيرُ بالرقىّ العلمىَ الذى حَلّ المشاكل الاقتصادية كما حلَّ نزواتِ التعصّبِ القديمِ وفتحَ الطريقَ مُشْرِقاً أمام أمريكا الجديدة .

الإيمان الإنساني

استرعى انتباهنا أخيراً حادثان هامّان على الرّغم من التفاوتِ فى ظاهرِهما : أَحَدُهُما يخصُّ دولة وجزيرةً ، والثانى يخصُّ قسًّا كاثوليكياً وأشياعه .. ولـكنَّ الصلةَ بين الحادثيْن واحدةٌ : وهى صلةُ الإيمانِ الإنسانى ؛ والمسرح الرئيسى واحد : وهو الولايات المتحدة الأمريكيةُ .

فى الحادث الأول : تتجلى جزيرة پورتوريكو التى ضُمَّتْ إلى الولايات المتحدةِ الأمريكية إثرَ هزيمةِ الأسبانِ فى الحربِ الأمريكية الأسبانيةِ سنة ألفٍ وثمانمائةٍ وثمانٍ وتسعينَ ، فَعَمِلَتِ الولاياتُ المتحدةُ من تِلقاء نفسِها على رُقىِّ هذهِ الجزيرةِ وبُلوغها منزلة الحكم الذاتى ، وكان آخرُ مظهرٍ لذلك دُستورها الذى وضعه أهل الجزيرةِ أنفسهم . وما تزال للشَّعب البورتورِيكىِّ حريتُه الكاملة فى الاستقلال عن الولايات المتحدة إذا شاء أو فى الانضمام إليها كولاية من ولاياتها ، وقد ساعدت الولايات المتحدة بالفعل استقلال الفيلبنيين منذ سنواتٍ وأيَّدت انضمامَها إلى هيئةِ الأممِ المتحدةِ ، بل أيَّدَتْ انتخابَ ممثل الفيلبنيين الجنرال رُوملو رئيساً للأُمم المتحدة فى إحدى الدَّوْرَاتِ . وكلُّ هذا بدافع الإيمان الإنسانىّ ، وبدافع الاعتقاد فى حقّ الشعوب المطلق فى الحرية وفى منزلة الإخاء

والمساواةِ . وقد تُنتقد الولايات المتحدة — إنْ خطأً أو صواباً — لقوانين بعضِ ولاياتها الجنوبيةِ الموروثة منذُ أجيالٍ ، وقد تُنتَقَدُ على تسامُحها فى قبولِ المهاجرين خِلافاً لكندا مثلاً ، كما انتقدتْ على مَسلكها السياسىّ فى جُملةِ مواقف . أمّا الذى ينساه منتقدوها فهو أنّ للحكومةِ من المظاهر الدستوريّة ومن الخطط والأوضاع ما يُريده الشعب نفسه ، وما على الشَّعْب إلّا أن يريد فتَتِمّ إرادتهُ ، وقد يكون الخطأُ المنتقَدُ غيرَ متعمّدٍ بل نتيجةَ الجَهْلِ بالحقائقِ التى يُهمل أصحابُها فى إطلاع الشَّعْب الأمريكى عليها ثم يلومونه على تقصيرهم ! كذلك ينسى هؤلاء المنتقدون أنّ الإيمانَ الإنسانىّ متغلغلٌ فى نفسيَّةِ الشعبِ ، وأنّ البوتقة التى تصهرُ جميعَ المهاجرين تكيّفهم فى النّهاية بالطابعِ الانسانىِّ الغالبِ على الشّعب الأمريكىّ ، كما ينسَوْن أنّ الزمنَ يُذيبُ التقاليدَ الرثةَ تدريجياً ، وهكذا تسير الحضارة الأمريكيةُ باستمرار إلى الأمام .

أمّا الحادثُ الفرديُّ الآخرُ الذى أشرنا إليه فقد أذاعَه (صوتُ أمريكا) فى العاشر من مارس سنةَ ألفٍ وتسعمائةٍ واثنتيْن وخمسين — أذاعَه ضمنَ نشرةِ الأخبارِ العربيَّةِ دونَ أن يعدَّه أمراً شاذًّا ، لأنّ الإيمانَ الإنسانىّ الذى ينطوى عليه ذلك الخبرُ غيرُ عجيب فى أمريكا ، بل هو من صميم حضارتها . أذاعَ (صوتُ أمريكا) فى ذلك اليوم أنّ

أحدَ قادة الكنيسة الكاثوليكية فى أمريكا حَثَّ المسيحيّين فى جميع أقطار العالم على أن يُحبّوا بعضُهم البعضَ وأن يُصلّوا من أجل إخوانهم المسلمينَ الذين يمكن أن يكون فى يدهم مِفتاحُ سلامِ العالَمِ . وما ذلكَ الرجلُ الدينىُّ الجهيرُ الذى قام بهذه الدَّعوة سوى سيادةِ المطران فُلْتُنْ شينْ Fulton Sheen مدير إحدى كبريات المؤسَّسات الكاثوليكية فى الولاياتِ المتحدةِ . وقد ذكرَ فى دعوته التى نشرتْها كبرياتُ الصحفِ فى ذلكَ اليوم « أنَّ بعضَ الشّعوبِ الآسيوية يمكن أن تجدَ الحلَّ لمشكلةِ السّلامِ العالمىِّ عن طريقِ قُوَّةٍ ثالثةٍ هى الإسلام » .

هذا الإيمانُ الإنسانىُّ تتعَدَّدُ صُوَرُه قَوْلًا وعَمَلًا فى ضُروبِ التآزُر والمعاونةِ داخلياً وخارجياً إلى درجة أصبحت فيها أمريكا « سانتَ كلوزِ العالَم » . وصُوَرُه البيانيةُ آياتٌ من الإيمانِ الحكيم نقرؤها فى الكُتُبِ والمجلاتِ من مدرسيَّةٍ وغيرِ مدرسيةٍ (وكان أبراهام لنكلن الرائدَ الأول فى التعبيرِ عنها) ، بل على المسرحِ والسينما التى لا يُقْصَدُ منها إلى مجرّدِ التّسليةِ . وقد عُنِيَ (صوتُ أمريكا) بتسجيلِ سلسلةٍ مديدةٍ من الآراء الإنسانية لمواطنينَ أعلام باسم « هذا ما أعتقدُ » This I Believe وهى آراء يؤمنون بها ويَعيشونَها بلا ريبٍ فى حياتهم ومُجتمعاتهم ، وتُسْهِمُ فى تكوينِ الرّأيِ الأمريكىِّ الإنسانىِّ الذى فى وسعِ أيّةِ أُمّةٍ

أن تظفرَ به عوناً وصديقاً ، لو أنها تبذلُ جُهداً كافياً صادقاً فى التنوير والإقناع . وهذه تكاد تكون خاصّيّةً للرأى العام الأمريكى الذى يُسيطر سيطرةً تامةً على حكومته بكلِّ معنى الكلمة و إلى درجة أكثر مما خبرناه فى انجلترا ذاتها .

قالت السيدة إينا كورين براون ***Ina Corinne Brown*** :
« إنَّ الواجبَ على المرء أن يَخْلُقَ نظاماً اجتماعياً يكون فيه الأشخاصُ أهمَّ من الأشياء ، وأن يَخْلُقَ أفكاراً أثمنَ من المستنبَطاتِ ، بحيث يقدِّرُ الأفرادُ فيه على أساس قيمتهم الذاتية » . والدكتورةُ براون ***Ina Corinne Brown*** — من العالمات الممتازات، وأستاذة الأنثروبولوجيا بكلية اسكارت ***Scarritt*** فى بلدةِ ناشڤيل ***Nashville*** بولايةِ تنّيسى . وتصريحُها هذا هو جزء من فلسفتها الشخصية العملية . تقول :
« إنَّ اعتقاداتِ الإنسانِ لا تُعلنُها الأقوالُ والعقائد التقليديةُ مثلما تُعلنها الفُروضُ التى يعملُ الإنسانُ بموجبِها والقِيَمُ الأساسيَّةُ التى بموجبِها تُفحَصُ جميعُ المختاراتِ الأثيرةِ . إنَّ الركنَ لِنظامى التقديرىِّ قد وضعه والدایَ فى طفولتى ، إذْ كانا يعتقدان بأنَّ الاستقامةَ الشخصيةَ هى أهمُّ الأمور . فما تساءلا مرّةً : ماذا سيظن الناسُ ؟ بل كان سؤالُهما : ماذا سيكون حُكمُكِ على نفسكِ إذا عملتِ هذا أو عجزتِ عن عمله ؟ وهكذا

كانت حياةُ الإنسانِ وفاقاً لِتصوّرِه هو لنفسهِ ذاتَ اعتبارٍ أساسيٍّ ، وصار السؤال : « ماذا سيظنُّ الناسُ ذا اعتبارٍ ثانويٍّ » . وأضافت الدكتورة براون إلى ذلك قولَها : « هناك قيمةٌ أساسيةٌ ثانيةٌ هى من بعض الوجوه امتدادٌ للقيمة الأولى السالفة الذكر ، وإنّى لمدينةٌ بها إلى أستاذٍ قديمٍ فى كليةٍ عانَى أكثرَ مِنْ نصيبهِ من الُحزنِ والاضطرابِ ، وكان تكراراً يقول لى : إن الشيء الوحيدَ الذى يَهمُّ حقيقةً هو أن تكونى أكبرَ من الأشياء التى يمكن أن تقع لك . فلا شيء يمكن أن يقعَ لكِ يبلغُ فى أهميّتِه مَبلَغ الطريقةِ التى ستُجابهينَه بها . وقد أدركتُ تدريجياً أنّ هُنا أساسَ الضمانِ الحقيقىّ والسلامِ للفكر الذى يمكن أن يَجدَه الإنسانُ . فما مِنْ أحدٍ يمكن أن يَجزِمَ متى يُمكنُ أن تَحلَّ به مُصيبةٌ أو خَيْبَةُ أملٍ أو عَسْفٌ أو إهانةٌ دون أن يكون مسئولاً عن ذلك . وما من أحدٍ يمكن أن يُضْمَنَ ضدَّ أخطائِه وخيباتِ مَساعيه . ولكنْ طريقةُ لقاء الحياة هى اختيارُنا نحن ، وحينما يقعُ اختيارُنا على الاستقامةِ والجَلَدِ والكرامةِ والرّحمةِ ، فإن الأشياء التى تُصيبنا تفقد سطوتَها علينا . وقد أدّى قبولُ هاتيْن القِيمتيْن الأساسيّتيْن إلى ثالثةٍ : وهى أنه إذا كان الأهمُّ ما يصنعُه الإنسانُ نفسُه فى مُجابهةِ الحياةِ وتكوينَه الشخصىّ ، فلن يؤثّرَ فى الإنسانِ ما للآخرِ مِنْ مالٍ أو منزلةٍ

أو قوةٍ ، كما لن يحكم الإنسانُ على الآخرين لاعتباراتِ الجنسِ أو اللونِ أو المركز الاجتماعىّ .

وهذا يفتحُ عالماً غنيًّا بالعلاقاتِ ، لأنه متى كانت الصداقاتُ مبنيّةً على صفاتِ العقل والخلقِ أصبح فى وسعِ المرء أن يجدَ له أصدقاء بين المُسنِّينَ والشُّباب ، وبين الأغنياءِ والفقراء ، وبين المشهورينَ والمغمورينَ ، وبين المتعلمين والأمّيين ، وبين الناس من جميع الأجناس والأمم . وبعد التَّسليم بهذه القيمِ الثلاث الأساسية تجلَّتْ قيمةٌ رابعة لا مَفَرَّ منها : ألاَ وهىَ واجبُ المرء الإلزامىّ فى المساعدة على خَلْقِ نظامٍ اجتماعىٍّ يكون فيه الآدميون أهمَّ من الأشياء ، والأفكار أثمنَ من الآلاتِ ، ويُقدَّرُ فيه الناسُ حسبَ قيمتِهم الذَّاتيَّةِ . وعلاوةَ على ذلك لكىْ يكونَ هذا التقديرُ عادلاً يجب أن يُعطَى النّاسُ فرصةً لإنماء مَواهبِهم إلى أقصَى غايةٍ مستطاعةٍ . وهكذا يُساقُ الإنسانُ إلى العملِ لِدُنيا قِوَامُها الحريةُ والعدلُ عن طريق الوسائل والمؤسّسات الاجتماعيَّةِ التى تجعلُ الناسَ فى كلِّ مَكانٍ يُدركون إمكانيَّاتهم العليا . ولعلَّ كلّ هذا مما يكمل الإيمانَ بما سُمِّىَ الانتفاع الإنسانى بالآدميين . على الناس أن يُعْنَوْا بغذائهم وبحاجاتهم البدنيّةِ الأخرى ، وعليهم أن يحمُوا أنفسَهم وذويهم مِن الضّررِ الجسمانىّ ، ولكنَّ هذه الوجُوهَ من النشاط

غيرُ مقصورةٍ على الآدميّينَ ، فمنها يَشغلُ كثيراً من الحيوانات . إنما حينما نصلّى أو نبتهلُ أو نشعرُ بالعطفِ ، وحينما نستمتعُ بلوحةٍ تصويريةٍ أو بمشهدِ غروبِ الشمسِ أو بسوناتا ، وحينما نفكّر ونعلّل ونلاحِقُ الأفكارَ ونبحثُ عن الحقيقةِ أو نقرأُ كتاباً ، وحينما نُبجّلُ الشئَ النبيلَ ونُعزُّ الشيءَ الطيّبَ ، وحينما نتعاون مع زُملائنا لبناء عالَمٍ أفضلَ ، فإنَّ سلوكَنا حينئذٍ يكون جديراً بمنزلتنا كآدميينَ » .

وهذه المعانى التى عبّرتْ عنها بهذه الصورة الدكتورة براون هى المعانى ذاتُها التى يُعبّر عنها الأمريكيون كافةً فى صُوَرٍ مختلفةٍ حسبَ درجاتِ تعليمهم وثقافتِهم ، وهى فى صميمها تعابيرُ عن الإيمانِ الانسانىِّ وما ينطوى عليه من التعلق بالحرية والإنصاف والكرامة البشرية . ولولا صدقُ هذا قولاً وعملاً إلى درجة التغلغلِ العميقِ فى نفوسِ الشعبِ ، لَمَا وافقَ هذا الشّعبُ على رَصْدِ بلايين الدولارات لإسعافِ الأُمم الغيورة على صيانة حُرّياتها من العدوانِ وحرّيته كذلك ، ولخدمةِ الأقطار التى لم تَستكمِلْ نُمُوَّها الثقافىّ ، ولإنقاذ أُممٍ شتّى من الخراب الأكيد ، وهى تفعل كلَّ هذا لا بروح الإحسان بل بروح الشُّعور بالواجب نحو زملاء فى الأُسرة الإنسانية الواحدة ، وبروح الاعتقاد بأنَّ سلامة هذه الأُسرةِ ورخاء الجميع يترتبُ على رخاء كلِّ فرد منها ، وهذا نقيضُ الروح الاستعمارية .

هذا هو أسمى لونٍ من ألوانِ الحضارة الإنسانيةِ يَعرِفُه ويُقدِّرهُ كلُّ مَنْ خبرَ أمريكا عن كَثَبٍ وكان رفيعَ الخُلقِ نزيهاً فى أحكامِهِ ، ولم ينكره إلاَّ المتطرِّفون مِنْ خُصومِها السياسيِّينَ ، والمرْضَى الجحُودُونَ الذى نَعِموا ويَنْعَمُونَ بخيراتها ، والجاهلونَ لحقائق الأُمور من المقيمين عَبْرَ البحار الذين لم تَسمحْ لهمُ ظروفُهم بالتخلّص من تأثيرِ الدعايات المُغرِضَةِ — شيوعيّةً كانت أم غيرَ شيوعيةٍ — وبالتحقيقِ الدقيقِ فيما يَسمعون ويَقرؤون ، وبين الأخير ما كتبَه بَعضُ السيكوباتيين والشيزوفرينيين الذين أقاموا فَتْرَةً فى الولاياتِ المتحدةِ للدراسةِ أو لسواها ثم خابوا فى غاياتهم الشخصية ، وهؤلاء يتميّزون بالتعالم وبالتهجّم وبالدعاوى التى تتّسم بالمنهاج العلمىّ وما هى منه فى شىء ، كما يتميّزون بالثرثرة الجوفاء ، ويُرْضى ساديّتَهمَ العملُ على خَلْقِ الحزاراتِ — بدلَ الجوِّ الودّىِّ الصالحِ — بينَ أمريكا ومَواطِنِهم الأصليّةِ .

فى الصناعة

الجديد في الصناعة الأمريكية

THE NEW IN AMERICAN INDUSTRY

الجديدُ فى الصّناعةِ الأمريكيةِ لا نهايةَ له ، كما يَشملُ أبواباً لاحصرَ لها . ولكننا سنقتصرُ فى هذه السلسلةِ على الأهمّ الذى له تطبيقٌ مباشرُ فى حياةِ الناس وفى تقدّمِهم على نطاقٍ واسعٍ .

ومن آخر المستَحدثاتِ فى المصنوعاتِ الأمريكية الصوفُ الصناعى الذى انتفعتْ به الحكومةُ الأمريكيةُ انتفاعاً كبيراً لملابسِ الجنودِ المحاربين فى كوريا ، فقد ثبتتْ صلاحيتهُ التامةُ وأمكنَ إنتاجُه بسعر أقلّ من سعر الصّوف الطبيعى .

وبين ثمارِ التكنولوجيا الأمريكيّةِ الحديثةِ نسيجُ الزّجاج الواقى من النار فتُصنَعُ منه مَلاَبِسُ المنقذِين من الحرائق ، وبفضلها يَستطيعون احتمالَ درجة ألفيْن من الحرارة بمقياس فاهرنهيت .

وهذه الملابسُ تتألف من عدة طبقات من نسيج الزجاج وصوف الزجاج . وبفضلها لم ترتفعْ درجةُ الحرارة داخل بذلة القائم بالإنقاذ عن ١٣٠ بمقياس فاهرنهيت ، كما أثبتتْ التجاربُ التى أُجْرِيَتْ حديثاً فى المطارات الأمريكية .

وكان لمؤسسة Owens - Corning Fiberglass Corporation العالميةِ الشهرةِ جهدُها الرائدُ فى هذا المَجالِ . وفى مقدمةِ منتجاتها الموادُّ العازلة الشائعةُ الاستعمال فى الثلاَّجات الكهربائية. ومن المتاجر الكبرى بجميع أنحاء الولايات المتحدة يمكن شراء ستائر للنوافذ مصنوعةٍ من نسيج الزجاج ، وميزتها الكبرى أنها لا تَعْلَقُ بها النارُ ، وأنها غيرُ قابلةٍ للانكماشِ أو للتمدُّدِ أو للتثنى أو للارتخاء ، كما لا تُؤثِّر فيها الشَّمسُ ولا المطر ولا ينالُها التَّعَفُّنُ ، ولا تحتاج أبداً إلى التَّنشية. وأحدثُها فيه ليُونةٌ ومَتانةٌ فوقَ المعهودِ سابقاً فى مثل هذا النسيج الذى كان يتكسّر أحياناً . أمَّا الستائرُ المصنوعةُ من هذا النسيجِ الجديدِ فطاقةُ احتمالها كبيرةٌ ومديدةٌ . وحاجتُها إلى الغَسْلِ لا تتجاوزُ ثُلْثَ حاجةِ الستائر القطنية مثلاً ، وفى هذا توفيرٌ لوقتِ ربةِ المنزل ولجهدها ، وعلى الأخصَ حينما نذكرُ أنَّ نَزْعَ هذه الستائر من أماكنها وغسلها وتجفيفها ثم إعادتها إلى أماكنها لا يستغرق إلاَّ دقائقَ معدودةً . وعلى الرغمِ من هذه المزايا فثمنُها لا يتجاوزُ ثمنَ الستائرِ القطنيةِ الجيِّدةِ .

وقد أجرَى مركزُ كولَمْبيا البرسبيتاريُّ الطبيُّ Columbia Presbyterian Medical Center تقديراً للوقت الذى وُفِّرَ فعلاً فى الخدمةِ بغُرَفِ المستشفى فاتضحَ أنه بلغَ ٥٦ بالمائة ، لأنَّ غُرفَ المستشفى

أُعِدَّتْ للمَرْضَى الُجدَدِ بسرعةٍ كبيرةٍ ، فقد كانت الستائرُ تُغْمَسُ فى الماء بحوضِ غَسْلِ الأيدى ثم تُجَفَّفُ ما بين الفُوطَاتِ ويُعادُ تعليقُها فوراً !

ويُصْنَعُ من النَّسِيجِ الزُّجاجىّ ما يَصحُّ أن نَدْعُوهُ بالصُّوفِ الزُّجاجى الرقيق الذى تُوَثِّقُ خُيوطَه بعضَها ببعضِ مادّةٌ بلاستيكيَّةٌ (أى عجينيّةٌ) فتتألّف منها مادّة مبطِّنَةٌ عازلةٌ صالحةٌ لداخل المعاطفِ التى تُلْبَسُ فى الجوِّ العاصف ، كما أنّها صالحةٌ لمعاطفِ الأطفالِ فى البلادِ الباردة الجوّ وفى الأجواء الثلجية .

ولمّا كان النسيجُ الثلجىُّ لا يَمتصُّ الماء فقد صار يَستعملُه كثيرون للتَّغطيةِ الخارجيةِ بدل قماشِ القَلْعِ ، ومن ذلك استعمالُه لتغطية ميادين الألعاب الرياضية وقايةً لها من المطر أو الرَّذاذ ، حتى إذا ما انتَهى سُقوطُهُ رُفِعَتِ الأغطيةُ بسهُولةٍ دونَ أن تصابَ ميادينُ الألعاب بأىِّ ضررٍ !

ومن أكبر مصانع الزّجاج فى الولايات المتحـدة مصانعُ Corning Glass Works حيث ابتُدِعَ نوعٌ من الزُّجاج ناقلٌ للكَهْرباء ، وإلى مثل ذلك وُفِّقَتْ مَصانع Libbey - Owens - Ford الأمريكية الشهيرة التى ابتكرتْ أيضاً زجاجاً قابلاً للصَّوْنِ على درجةٍ

حرارةٍ معينةٍ كأن يكون مقاوماً للجليد . ومثلُ هـذا الزجاج صالحٌ جـدًّا لنوافذ الطائرات والقاطرات الحديدية والسفن والأوتوبيسات ونحوها .

وكثيراً ما اجتـــذبَ اللّونَ الأزرقُ الأخضرُ لزجاج النوافذِ بالمركزِ الرئيسيّ للأمم المتحدةِ فى نيويورك أنظارَ المارة والزائرين . وهذا الزّجاجُ أحدثُ ما أنتجتْه مصانع ***Libbey - Owens Ford*** للوقاية من بَهَرِ النظر ، ولامتصاص الحرارة ، مانعاً تَسَرُّبهاَ إلى الداخل . ويدخل الحديدُ فى صناعة هذا الزُّجاج . وما احتوى منه كيةً كبيرةً من أوكسيد الحديديك يَمنعُ تَسَرُّبَ الأشعةِ التى فى منطقة ما وراء البنفسجية مثلاً ، وهى الأشعةُ التى تسبّبُ البَهَرَ . ويُسْتعْملُ هذا الزُّجاجُ فى الألواح الواقية أمامَ سائقِي السيارات ، فيخفّض الأشعةَ بنسبة ٣٣ ٪ ويخفّض الحرارة بنسبةِ النصفِ تقريباً .

وقد حدث تقــدُّمٌ كبيرٌ فى صناعة الزُّجاج المتين الصّلب الذى يَصدُّ الرّصاصَ ، ومنه ما يُسْتَعْمَلُ فى صناعةِ الحقائبِ وفى صناعةِ القبّعاتِ الحربيةِ وفى صناعةِ القواربِ ، فهو على خِفَّتِه جِدُّ متينٍ بازًّا متانةَ المعادن .

ومن أهمِّ المبتــكرات الزجاجية النسيجُ الزجاجيُّ الرصاصيُّ الذى استعمله الأطباء فى جامعة فرجينيا فى أرديتهم الواقيــة من تأثير أشعة إكس . وقد وُجِدَ هــذا النسيجُ واقياً أيضاً من الأشعة الناجمةِ عن حاصلات انقسامِ الذرّة ، وعلى ذلك سيكون له شأنٌ أيُّ شأنٍ فى صيانةِ أرواحٍ عديدةٍ فى هذا العصرِ الذَّرِّيِّ .

فهرس

يطلب من :

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي " الفجالة "

دار مصر للطباعة

٣٧ (ع) شارع كامل صدقي " الفجالة "